الفصل الثالث

من مبدأ أيزنهاور إلى حرب الأيام الستة

«آمل أن يفهم أصدقاؤنا في الناتو بوضوح أننا لا ننوي أن نقف متفرجين لنري الجناح الجنوبي للناتو ينهار تماما بسبب الاختراق الشيوعي للشرق الأوسط ونجاحهم هناك فيما لا نفعل نحن شيئا إزاء هذا. متأكد أنا أنهم يعلمون أننا نعتبر عبدالناصر تائيرا شريرا».

– من الرئيس دوايت أيزنهاور إلي جون فوستر دالاس

٥ ديسمبر ١٩٥٦

«بالطبع، فإن واجبك وواجبي في هذه اللحظة هو عدم النظر خلفا بل إنقاذ الشرق الأوسط من اندلاع حرب لا أعتقد أن أحدا يريدها.. إنني أستحثك أن تضع هذا الهدف المتسامي: تلافي الأعمال العدائية كواجبك الأول لشعبك، ولمنطقتك والمجتمع الدولي».

– من الرئيس ليندون بي. جونسون إلي جمال عبدالناصر

٢٢ مايو ١٩٦٧

كانت أزمة السويس بداية لمشاكل أيزنهاور في السياسة الخارجية. وعلي الرغم من أنه اكتسح أدلاي ستفنسون في انتخابات عام ١٩٥٢ التي أعادته إلي الرئاسة، لكن تلك كانت الأخبار الطيبة الوحيدة لفترة من الزمن. وفي واقع الأمر، فقد استمرت ذرات الإشعاعات الضارة تتطاير حتي نهاية فترة رئاسته الثانية، ومن بينها ما قيل عن إخفاق طائرة التجسس الأمريكية التي أجهضت لقاء قمة بين نيكيتا خروشوف والرئيس كان مقررا أن يعقد له في باريس، حيث رفض أيزنهاور التنصل من إرسال طائرات تجسس إلي الاتحاد السوفييتي. أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦، كان خروشوف قد لوّح بسبابته محذرا غزاة مصر، بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وأعلن أن الاتحاد السوفييتي يملك أعدادا كبيرة من صواريخ ICBMs وأنه سيستخدمها إن لم يتوقفوا ويتراجعوا.

وعلي الرغم من أن تشدد واشنطون إزاء الأزمة كان له كبير الأثر في توقف

العدوان إلا أن ذلك لا يقلل من الانطباع بأن تهديد الاتحاد السوفييتي كان استباقا لما ينتظر سياسة الولايات المتحدة. كان إطلاق القمر الصناعي الروسي سپوتنيك Sputnik مبرِّرا لتباهي الكرملين وتسبب في توتر إدارة الجمهوريين فيما انتهز الديموقراطيون الفرصة وأخذوا في عزف نغمة «فجوة الصواريخ»، الأمر الذي كان له أن يدفع بهم قدما في حملة الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٦٠. لكن ما أُخفِي عن الجمهور كان هو نجاح تحليق طائرات التجسس الأمريكية U-2 فوق الاتحاد السوفييتي، قبل تلك التي أسقطها الروس عشية اجتماع القمة، واكتشافها أنه لم يكن ثمة «فجوة صاروخية». كان تضخيم خروشوف لما يحوزه الاتحاد السوفييتي من أعداد كبيرة للصواريخ أمرا سابقا لأوانه، على أقل تقدير.

بيد أن أحداث أزمة السويس تجمع حولها عدد كبير من الأسئلة والشكوك تتعلق بأسلوب مباشر أو غير مباشر بما حدث في تلك الأيام الأخيرة من أكتوبر ١٩٥٦. كتب

جورج إف. كنان، الذي قيل إنه ابتدع سياسة «الاحتواء» قبل أن يتقاعد عن الخدمة بوزارة الخارجية ويصبح باحثا مقيما في معهد الدراسات المتقدمة بجامعة برينستون، كتب خطابا إلي صحف واشنطون يعلن فيه أن «أُسس السياسة الخارجية الأمريكية السابقة يجري حَرفها الآن» وأن أيزنهاور بذهابه إلي الأمم المتحدة «لابد له وأن يُدمر ما تبقي لحلفائها في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا من مواقع» وأضاف أنه بذلك «سيُنكر علي دولة إسرائيل – التي ساعدنا علي قيامها بكل حماس – ميزة الدفاع عن وجودها في مواجهة الحصار المميت الخطير المفروض عليها من جيرانها».

بالطبع، فإن اللافت في هذا التعليق هو أن كِنان كان قد ألح، عام ١٩٤٨ علي ألا تصبح الولايات المتحدة طرفا في المغبات التي ستنجم عن إقامة الدولة الجديدة وأن أفضل وسيلة لذلك هي ألا تقوم الولايات المتحدة بدور القابلة في ولادتها. كانَ موقفه من بريطانيا وفرنسا متسقا مع معتقداته المبكرة وقلقه مما قد يصيب الغرب إن أصبحت الولايات المتحدة راعية لجميع الدول الجديدة ومحاولاتها الصاخبة لجذب الاهتمام في الجمعية العامة. كان كِنان يخشي من أن اختفاء بريطانيا وفرنسا من المشهد قد يفتح المنطقة أمام الاختراق الشيوعي ويدفع بالولايات المتحدة بأسلوب حتمي لملء ما أصبح يطلق عليه «فراغ القوة».

أيضا، أدت أحداث السويس إلي حدوث سباق تسلح جديد كان يهدد بأن يصبح نوويا، إذ سرعان ما قام الاتحاد السوفييتي بتعويض مصر عن الطائرات والأسلحة الأخري التي كانت إسرائيل وحلفاؤها قد دمروها وكان ذلك من شأنه زيادة نفوذ مصر بقيادة ناصر في المنطقة. كان من نتائج حرب السويس اكتساب الزعيم المصري مكانة رفيعة في العالم العربي، تلك المكانة التي افترضت أمريكا والغرب أنه يريد استغلالها لجعل المنطقة بأكملها تابعة له. بعد السويس مضت إسرائيل تقول إن الطريقة الوحيدة لوقف الجيش المصري من التحرك ضدها هي أن تقوم بتصنيع قنابل ذرية، وبدأت واشنطون تشعر أن عليها إنهاء القيود علي تزويد إسرائيل بالسلاح، ولو من أجل كبح طموحات تل أبيب النووية بقدر.

مبدأ أيزنهاور:

كان ثمة شعور في بعض دوائر واشنطون بأنه كان ينبغي علي الولايات المتحدة الانضمام رسميا لحلف بغداد، وأنها لو كانت قد فعلت ذلك، لكان من المحتمل ألا تحدث أزمة السويس. وأيًا كان الأمر، فقد زعم كنان في خطابه أن دالاس تسبب في الأزمة من خلال «عدم قدرته علي الحفاظ علي اتصالات حميمية مع أصدقائنا واتباعه أسلوباً سياسياً موجّهاً إلي الجماهير الأمريكية لا إلي حقائق وضعنا». وعلي الرغم من عدم موافقة أيزنهاور علي مزاعم كنان إلا أنه شعر أن لا خيار للولايات المتحدة سوي اتخاذ خطوة أحادية لملء فراغ القوة. في ٥ يناير ١٩٥٧، وحتي قبل مراسم تولّيه فترة رئاسته الثانية، بعث أيزنهاور برسالة إلي الكونجرس يطلب فيها تفويضا لمجابهة خطر «الشيوعية الدولية بالشرق الأوسط. قال إن «الشيوعية الدولية تسعي إلي إخفاء أهدافها في الهيمنة من خلال تعبيرات النوايا الطيبة وعروض تافهة وجذابة بتقديم المساعدات السياسية والاقتصادية والعسكرية، إلا أن علي أي بلد حر يتعرض لإغراءات السوفييت أن يستخدم مبادئ الحكمة وينظر خلف القناع السوفييتي». بالطبع كانت أكبر العروض السوفييتية قد ذهبت إلي مصر وكان هدف أيزنهاور من تلك الرسالة هو تصوير ناصر علي أنه ساذج، أو جاهل بأهداف موسكو، وفي أي من الحالتين، فقد أصبح القائد المصري خطرا علي المصالح الأمريكية.

مضي الرئيس يقول في رسالته إلي الكونجرس، إن ثمة مسئولية جديدة تقع علي عاتق الولايات المتحدة، ألا وهي مساعدة أي بلد، أو مجموعة من البلدان، علي مقاومة استيلاء «الشيوعية الدولية» عليها. من ثم، عبر عن رغبته في الحصول علي موافقة مسبقة في هيئة قرار من الكونجرس يَسْمح باستخدام القوة المسلحة لإنقاذ أي من تلك البلاد من هذا المصير الكارثي إذا اقتضت الحاجة، وذلك القرار سيمنح تفويضا بأن تتضمن تلك المساعدة وذاك التعاون استخدام القوات المسلحة للحفاظ علي سلامة أراضي تلك الدول وحمايتها، وضمان استقلالها السياسي لدي طلبها هذا لمواجهة أي عدوان مسلح من أي بلد تهيمن عليه الشيوعية الدولية».

. لم يكن ليثير الدهشة أنه حينما وصل اقتراح الرئيس إلي الكونجرس قام الأعضاء بذكر اسم «مصر» بصفتها البلد الذي تهيمن عليه «الشيوعية الدولية». كان السناتور چون إف. كنيدي عضوا بالكونجرس لكنه اتخذ مسارا مخالفا إذ إنه كان يخشي من أن مَدّ تلك المظلة من الضمانات بحيث تغطي دول الشرق الأوسط قد يعمل علي اغتراب مصر ويدفع بلادا مثل سوريا إلي الاقتراب أكثر من الاتحاد السوفييتي. كان الأميرال ردفورد رئيس رؤساء هيئة الأركان المشتركة، قد تنبأ في شهادته السرية بأنه إذا تمت الموافقة علي «مبدأ أيزنهاور» الذي كان في واقع الأمر امتدادا لـ «مبدأ ترومان»، فإن ذلك سيوقف تدفق الأسلحة على مصر «في ضوء حقيقة أن الولايات المتحدة ستعارضهم إذا بدأوا في بناء قواتهم المسلحة وتقويتها» ورأي أن هدف الاتحاد السوفييتي هو تحويل مصر إلي دولة تابعة، علاوة علي أن حيازتها للأسلحة الروسية ستعمل علي احتضانها لأهداف السوفييت الأيديولوجية في وجود تلك الرابطة العسكرية. لكن كنيدي كان متشككا ورأي أن ذلك قد يكون له نتيجة مغايرة بل إنه قد يؤدي إلي إشراك الولايات المتحدة، رغما عنها، في حرب محلية إذا قامت مصر وسوريا باجتياح العراق عسكريا، ورأت واشنطون أنهما واقعتان تحت هيمنة الشيوعية الدولية. أسرع رادفور إلي القول إنه لم يقصد ترك هذا الانطباع، هذا علي الرغم من إصراره علي أنه يري في سجل ناصر ميولا ماركسية لازمته منذ وقت طويل.

كانت واشنطون قد اتخذت عددا من الخطوات في أعقاب أزمة السويس أملت من خلالها كبح زمام الأمور إلي أن يحدث أمر يدفع عبدالناصر إلي تغيير موقفه. أبقت علي تجميد أموال مصر بزعم انتظار التوصل إلي تسوية لتأميم القناة، كما أوقفت المساعدات الأخري، ثم قامت بتقليص شحنات القمح إلي مصر، واستدعت المستشارين التقنيين الأمريكيين من مشاريع التنمية. علاوة علي ذلك، قامت الأمم المتحدة بوضع قوة دولية في صحراء سيناء لتقليل مخاوف الإسرائيليين من أية عملية ثأرية تقوم بها مصر ردا علي إنزال قواتها أثناء أزمة السويس. حينما سئل مسئولو

وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٥٨ عن احتمال تقديم الولايات المتحدة أية معونات لمصر في المستقبل القريب، كانت الإجابة الرسمية هي احتمال استئناف المساعدة الاقتصادية بعد مرور فترة زمنية مناسبة.

في الأشهر الأولي من عام ١٩٥٧، تم استدعاء مايلز كوبلاند الذي كانت السي أي إيه قد أناطت به تدريب ناصر وتوجيهه الوجهة التي ترضاها أمريكا، استدعاؤه إلي واشنطون للإدلاء بتقديره حول الخطوة التالية التي ينويها القائد المصري وأُبلغ أن يعطي وزارة الخارجية صورة حية للموقف الدولي كما يُري من النيل. من الواضح أن كوبلاند أجاد دوره أمام المسئولين وأعطاهم تقارير لم يرضوا عنها بدرجة أن شكا أحدهم بأنه يتحدث مثل ناصر بأكثر من ناصر نفسه. لكن الصدمة الحقيقية أتت من آلان دالاس الذي استدار إلي كوبلاند وقد استشاط غضبا وقال «إن استفزنا جنرالك هذا بأكثر مما ينبغي فسنقوم بشطره نصفين».

توافق رادفورد ودالاس في شهادتيهما أمام الكونجرس حول مبدأ أيزنهاور علي أن مفتاح قلب الوضع رأسا علي عقب كان هو مجابهة النفوذ المصري بمخطط للتقليل من أهمية التنافسات القائمة بين مصر والعراق من حيث خطاباتهما المعادية لإسرائيل والبحث عن خلق «قوة ثالثة» في الشرق الأوسط، أي المملكة السعودية، التي تم اختيارها لأسباب عدة أهمها، وفقا لما قاله دالاس أن ملكها «هو بمعني ما الرئيس الشرفي لدينهم، كما أن مكة وغيرها من الأماكن المقدسة تقع علي أرضه ومن المحتمل أن يكون له نفوذ كبير في المنطقة. وفي رأيي أن علينا أن نُعدّه ونُعدّ من حوله، وما حوله».

شعر كثيرون ممن شهدوا الرهان علي ناصر ينهار بأن ثمة بداية جديدة لهم في الرهان علي السعودية. كان دالاس، قد أشاد بمصر ذات مرة، بصفتها المقر الحقيقي للثقافة والعِلْم الإسلاميين، كما أنها الأقل مقاومة للتأثير الغربي وإن كانت ترفض السلوك البريطاني الإمبريالي. أما المملكة السعودية فكان الأمر محل شكوك حيث إنه، إذا كان لمبدأ أيزنهاور أن ينجح، فإنه يحتاج إلي عُصبة مُساندة موثوق بها.

في ٣٠ يناير ١٩٥٧، ذاك اليوم شديد البرودة، وقف أيزنهاور بانتظار هبوط الملك سعود من طائرة الرئيس الشخصية «كولومباين» التي كانت قد وُضعت تحت تصرف الملك لتقلّه إلي الولايات المتحدة ولم يكن ناصر قد تلقى أبداً مثل هذه الدعوة للقدوم إلى الولايات المتحدة ولو علي متن طائرته. بيد أن الرئيس كان علي قدر من التشكك حول صواب ذهابه لاستقبال سعود بالمطار لكن أتي اتصال من السفير السعودي إلي وزارة الخارجية ليبلغ الوزير دالاس أن «الملك سيلغي زيارته للولايات المتحدة إذا لم يلتقه الرئيس بالمطار». كانت تلك هي المرة الأولي التي فعل فيها أيزنهاور ذلك، كما أنها كانت الخطوة التالية في العلاقة بين البلدين التي كان روزفلت قد بدأها عام ١٩٤٥، لكن كان ثمنها هذه المرة أعلى بكثير إذ بلغ مائة مليون دولار.

وعلي الرغم من أن الملك سعود قضي أسبوعا بواشنطون، وكان ذلك دليلا علىٰ مدي تفضيل الأمريكيين له علي مصر عبدالناصر، إلا أن إجاباته لم تكن دائما تلك التي أرادها سامعوه. بدأ البيان الختامي بجملة قاطعة تؤكد «الأهمية الكبري» للسعودية في الشرق الأوسط وكيف أن مصالح السلام العالمي كانت تتطلب العمل علي تقويتها «من أجل الحفاظ علي الاستقرار وحماية مؤسساتها وتطورها المضطرد» ألزم البيان أيضا السعودية بالسعي إلي التسوية «العادلة» لمشاكل الشرق الأوسط من خلال الوسائل السلمية، وكانت هذه إحالة ملتوية إلي المشاكل العربية / الإسرائيلية، وكان هذا الالتزام أيضا ما كانت مصر ترغبه منذ فترة ليست بالقصيرة. وافق سعود أيضا علي أن يعمل علي تحسين العلاقات بين الولايات المتحدة والبلاد العربية الأخري ونظير ذلك، ستوفر الولايات المتحدة الأموال اللازمة لتحسين قدرات قاعدة الظهران الجوية، وتقدم المساعدة لتقوية الجيش السعودي.

أكد دالاس للسفير البريطاني، هارولد كاكشيا تفاصيل برنامج المعونة العسكرية، والذي تضمن خططا للقاعدة الجوية بالظهران واتفاقاً علي بيع أسلحة قيمتها مائة مليون دولار علي مدي خمس سنوات، أي أكثر من عشرة أمثال تلك التي كانت قد عرضت علي مصر كصفقة وحيدة يتيمة، والتي فشلت ولم تتم أبدا. أظهر كاكشيا

تعجبه من كبر حجم برنامج المعونة بيد أن دالاس بدا غير آبه وأخبره: «لقد قلت إننا نشك في أن يكون لها أي أثر جاد علي المنطقة». لكن جورج مكجفورن عضو الكونجرس عن ثاوث داكوتا وجّه نقدا من نوع آخر إلي ذلك البرنامج حيث قال «هل نعمل علي بناء القوة ضد الشيوعية من خلال الإسهام بدولارات ضرائب الأمريكيين للإبقاء علي مثل هذا الاستبداد الإقطاعي؟».

أما الإجابة الحقيقية غير المنطوق بها عن سؤال مكجفورن فكانت هي أن مبدأ أيزنهاور كان موجها لاحتواء الناصرية والقضاء عليها بصفتها قوة قائمة في منطقة الشرق الأوسط. كتب الرئيس إلي وزير خارجيته عشية زيارة الملك «إذا نحن استطعنا أن نجعل من سعود شخصا يأسر خيال العالم العربي، لن يبقي ناصر طويلا». وكانت المشكلة الحقيقية هي عدم وجود مرشح آخر لتلك المهمة. مثلا، كانت الآراء بالغة الاستقطاب حول نوري السعيد كما أنه كان قد اختلف مع البريطانيين حول حلف بغداد وبذلك فقد أهليته للاضطلاع بتلك المهمة، في حين كان كميل شمعون رئيس جمهورية لبنان مسيحيا يرأس بلدا صغيرا منقسما علي نفسه. أما الملك حسين، فلم يكن لأحد، مهما جمح به الخيال، أن يتصوره شخصية دولية، بل إنه كان يجد صعوبة في الحفاظ علي مقاليد الأمور في بلده الصغير.

وفيما احتوي البيان بعض التعبيرات الملتبسة ولم ينص صراحة علي خطر «الشيوعية الدولية»، إلا أنه كان بالإمكان فهمه علي أنه مصادقة علي أهداف السياسة الأمريكية، بما في هذا الجزم بأنه يجب التوصل إلي تسوية عادلة لجميع القضايا وبدون حرب. كان هذا كافيا لأن يسمح لأيزنهاور باتخاذ موقف صلب حول استمرار إسرائيل في احتلالها للأراضي المصرية، وقد فعل هذا في خطاب علني للأمة في ٢٠ فبراير ١٩٥٧ جاء به أنه علي الرغم من أن قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة قد اتخذت مواقعها علي خطوط الهدنة بخليج العقبة فمازال الإسرائيليون يرفضون الانسحاب وهذا «يثير سؤالا أساسيا مبدئيا: أيجوز السماح لبلد يهاجم أرضا أجنبية ويحتلها في مواجهة استنكار الأمم المتحدة أن يفرض شروطه بشأن انسحابه؟».

كان أيزنهاور في مركز قوة آنذاك إذ كان قد أعيد انتخابه بهامش ضخم كما أنه كان قد حصل من مصر علي تنازلات بشأن المرور الدولي في قناة السويس وخليج العقبة. من ثم كان من الصعب حتي بالنسبة لأعضاء الكونجرس الموالين لإسرائيل أن يروا سببا لعدم كفاية ذلك، هذا علاوة علي أن وعد أيزنهاور بأن مصر ستخضع للمحاسبة عمل علي إرضاء إسرائيل وداعميها الأمريكيين، مؤقتا علي الأقل. وعلي الرغم من احتمال إثارة علاقة أمريكا الجديدة بالسعودية القلق في بعض الدوائر، إلا أن الأمور بدت وكأنما الولايات المتحدة قد نجحت في العثور علي قوة مجابهة لناصر، قوة تتناقض مواقفها المحافظة مع ما افترضوه وأنه الأهداف الراديكالية الملتهبة للقيادة المصرية.

في تلك الأثناء، كانت الإدارة قد نجحت في تحقيق هدف آخر ألا وهو التصالح مع بريطانيا العظمي، حليفتها اللصيقة. كان هارولد ماكميلان، والذي كان من صقور حرب السويس، ثم انشق عن أنطوني إيدن المريض، قد أصبح رئيسا للوزراء وكان هذا تطوراً آزره أيزنهاور بقوة، ومن ثم، تم الترحيب به في واشنطون بصفته شخصا تفهم النقلة الأنجلو/ أمريكية فيما يخص موازين القوي بالشرق الأوسط، وأيضا كشخص يمكن الاعتماد عليه في القيام بدوره بأسلوب يتسم بالولاء والحماس. وأثناء عشاء عمل بنادي برمودا ميد أوشان، أثار رئيس الوزراء الجديد السؤال المستعصي المُلحّ: ما الذى تنوي الولايات المتحدة فعله بشأن هذا الرجل غير الموثوق به بإطلاقه؟ أتنوي واشنطون الاستمرار في تقديم سلسلة من المغريات من أجل إرضائه وبهذا الأسلوب تجد حلا للمشاكل المزمنة المتعلقة بالقناة وإسرائيل؟ أتي رد أيزنهاور علي قدر من الالتباس إذ قال إن المرء لا يمكن أن يسعي إلي تعاونه، ثم يجابهه في آن. لكن ماكميلان ثابر وقال إنه لا يعتقد أن ذلك يعني أنهم متمسكون به أو أنهم لن يشعروا بالسعادة حال قامت قوي داخلية من بلده بالإطاحة به، هنا تدخل الوزير دالاس قائلاً إنه ليس من المطلوب من الولايات المتحدة دعمه داخليا في مواجهة القوي المحلية بل إننا سنرحب، في واقع الأمر، بحدوث أنواع معينة من التغيير في مصر».

لكن هذا كان مختلفا عن شن حملة دولية [علي مصر من أجل الإطاحة به]، من ثم، أومأ ماكميلان برأسه في إشارة إلي أن تلك كانت إجابة مرضية عن السؤال المُلحّ المستعصي.

سوريا وتحولها الجزئي إلي ناصر مرة أخري:

بعد بضعة أشهر، صادق ماكميلان وأيزنهاور علي تنفيذ محاولة سرية للغاية للإطاحة بالحكومة السورية التي كانت قد توصلت إلي عدد من الاتفاقيات الاقتصادية مع الاتحاد السوفييتي. كانت خطة السي آي إيه وجهاز الاستخبارات الخارجية البريطانية التي قضت بإثارة بعض الأحداث الحدودية الزائفة واتخاذها ذريعة من قبل جيران سوريا لغزو البلد والإطاحة بالحكومة من خلال عملية داخلية، كانت قد فشلت، وكان ذلك إلي حد كبير بسبب أن الرجل الذي كانت الإدارة تعده لتولي القيادة الروحية للعرب، ولنجاحه كمنافس لناصر، قد رفض مجاراتهم في تلك الخطة. بل إن الملك سعود، حتي أثناء زيارته لواشنطون، كان قد حذر دالاس من أن الولايات المتحدة كانت تبالغ في مدي تحكم الشيوعيين في دمشق، وحينما توجه السوريون نحو روسيا، ألقي سعود باللوم علي الولايات المتحدة، وذلك لأن السوريين مثل المصريين توجهوا إلي روسيا لعدم إمكانهم الحصول علي السلاح من الولايات المتحدة «فيما تنهال المساعدات العسكرية والاقتصادية متدفقة علي إسرائيل، ولم يكن للوضع أن يصل إلي ما هو عليه الآن إذا كانت الولايات المتحدة قد اهتمت بتلك الطلبات».

كتب روبرت ڤيتاليس يقول «يبدو أن التراجع عن الاعتناق المبدئي لمبدأ أيزنهاور في سبيله للتحول إلي حالة من الاضطراب والشغب» فيما وجد الملك سعود نفسه هدفا للقوميين العرب من أمثال محمد حسنين هيكل الذي سخر من سعود قائلا إنه لا يتعدي كونه صنيعة ذليلة للأمريكيين. اعترف الوزير دالاس للسناتور مايك مانسفيلد بأن العرب يمتنعون عن القيام بأية عملية عسكرية ضد سوريا: «قال الوزير إن الرأي العام في البلاد العربية كانا معاديا لمثل تلك العملية إلي درجة لم تترك للقادة العرب خيارا». أسف دالاس أيضا لما للدعاية السوفييتية من تأثير هائل علي

«جماهير الرعاع في العالم العربي» وذلك نتيجة لارتباط الولايات المتحدة بإسرائيل. كان آنذاك يقرأ أوراقا بحثية كُتبت منذ عقد مضي، قبيل قيام دولة إسرائيل مباشرة. قال «يذهلني مدي الدقة التي تنبأت بها تلك الأوراق بالمشاكل التي ستتبع ظهور دولة إسرائيل».

لكن تلك المشاكل كانت قد بدأت لتوها بالنسبة للسياسة الأمريكية. في عام ١٩٥٨ اندمجت سوريا ومصر مكونتيْن الجمهورية العربية المتحدة، وعلي الرغم من أن هذه الوحدة لم تدم سوي بضع سنوات إلا أنها بدت لبعض الوقت وأنها تستبق حركة عامة للوحدة بين بعض البلدان العربية بزعامة ناصر. ووفقا لمجريات الأمور، فلم يكن ناصر قد سعي إلي وحدة كاملة مع سوريا. ونجم عن تلك الخطوة وضع حرج. من المفارقات أن أحد العوامل الرئيسية لقيام تلك الوحدة هو أن مؤيدي ناصر من العسكريين في سوريا رأوا فيه عاملا لمقاومة التغلغل الشيوعي في بلدهم، علاوة علي أنه أثبت أنه معادٍ للحركات الدينية المتطرفة من أمثال جماعة الإخوان المسلمين، وبخاصة بعد محاولتهم اغتياله. أحدثت تلك التطورات الجديدة انعطافة جديدة في السياسة الأمريكية وبخاصة بعد فشل مخطط سعودي خائب قُصِد به «إنقاذ» سوريا من «الناصرية».

كانت أول تجربة لجعل الملك سعود رجل الساعة بالنسبة للجهود الأمريكية لمجابهة تأثير ناصر ونفوذه، كانت فشلا مروعا. كان عميل سري سعودي قد فاتح أحد الجنرالات السوريين وقدم له شيكا بمبلغ ٢ مليون دولار كدفع مسبق نظير إطلاق النيران علي طائرة ناصر وإسقاطها في طريق عودته إلي القاهرة بعد حضوره احتفالات الوحدة في دمشق. وعلاوة علي الأموال، لجأ العميل، في محاولة لاستمالة الجنرال، إلي استخدام أطروحة أن مشاعر ناصر المعادية للمسلمين [الإخوان المسلمين] كانت ضمانا لدخول روسيا إلي سوريا من الباب الخلفي. لكن لسوء الحظ، كان الضابط السوري الذي تم اختياره لإدارة الجانب المحلي من المؤامرة من أشد مؤيدي ناصر، وكان يعتقد أن الرئيس أفضل من يمكنه التصدي لانتشار الشيوعية في سوريا ووقفه.

من ثم، قام الضابط السوري علي الفور بتسليم الشيك إلي ناصر الذي أحرز انتصار علاقات عامة جديدة فيما كان يقف في شرفة قصر الضيافة ويلوّح بالشيك لحشود الجماهير السورية الهادرة أسفل والتي ألهب الزعيم مشاعرها بشجبه عملاء الإمبريالية ووكلاءهم من الملوك. في واشنطون، أبلغ دالاس الرئيس أنه قد تم تحديد ٢١ فبراير ١٩٥٨ موعدا لإجراء استفتاء عام علي الوحدة بين مصر وسوريا، وأضاف أنه كان قد استمر في إجراء اتصالات حول تضمينات الوحدة المقترحة مع عدد من دول الشرق الأوسط، أي العراق والأردن ولبنان، التي كانت قد أصبحت الأماكن التي يُظنّ وجود معارضة فيها لناصر: «أبلغنا حكومات تلك الدول أننا يسرنا أن ندرس بإيجابية دعم أية خطة معقولة مشتركة يمكنهم التوصل إليها للحيلولة دون إتمام تلك الوحدة أو من أجل معارضتها» لكنه اعترف بأنه حتي آنذاك لم يكن ثمة قرائن علي أن «أصدقاءنا العرب يمكنهم صياغة عمل مشترك، كما أنهم كانوا غير راغبين في ذلك». والحال كذلك، لم يكن ثمة خيار أمام الأمريكيين سوي الاعتراف بالحكومة الجديدة.

بيد أنه كان ثمة وميض أمل بالنسبة لأمريكا في سحابة الجمهورية العربية المتحدة، إذ إنه كان هناك إمكانية لتشكيل كتلة من البلاد العربية المعادية للشيوعية، كما كان من المحتمل لناصر أن يستخدم خطاب معاداة الشيوعية وسيلة أساسية لاجتذاب الجماهير. اعترف دالاس لأيزنهاور قائلاً: «ليس بإمكاننا عدم الاعتراف بالجمهورية العربية المتحدة بدون أن نتخلي علناً عن سياستنا التقليدية بشأن الوحدة العربية وبدون الإساءة إلي المشاعر الشعبية تجاه القومية العربية». أضاف أيضا، أن قيام الجمهورية العربية المتحدة قد أوضح عدم إمكان سعود أن يكون رجل الساعة في ظل أية ظروف. من ثم، فما جدوي الاستمرار في تمني ظهور نبي في الرياض ليحل محل ناصر! ولذلك، توجهت الإدارة مرة أخري، وإن كان بأسلوب متردد، بعروض لاستئناف مبيعات القمح بشروط مواتية وفقا لبرنامج الكونجرس، PL480 الذي كان يتيح للدول الفقيرة استخدام عملاتها المحلية لشراء الفوائض الأمريكية من القمح. وعلي الرغم من أن هدف PL480 كان دعم الأسعار المحلية إلا

أنه استخدم أداة للسياسة الخارجية. أيضا، فقد رُئى أنه قد يدفع مصر لمزيد من التعاون وذلك لاحتياجها إلي استيراد المواد الغذائية التي تتطلبها الزيادة السريعة في عدد سكانها.

في نهاية شهر أبريل عام ١٩٥٨، أجري رايموند هير، السفير الأمريكي الجديد في الجمهورية العربية المتحدة، حديثا مثيرا للاهتمام مع ناصر استمر ساعتين استعرضا فيهما مجريات الأمور بين البلدين. سأله ناصر «ما هدفكم؟»، وبين له أنه كان مقتنعا إلي وقت قريب أن هدفهم كان التخلص منه شخصياً، ومن ثم اتجه إلي روسيا طلبا للمساعدة العسكرية والاقتصادية من أجل البقاء. ثم تساءل عما إذا كانت الولايات المتحدة، إذا حدث وساءت العلاقات مع السوفييت، ستستغل المحنة التي قد تجد فيها مصر نفسها لتتخلص من نظامه؟

كانت تلك طريقة مثيرة للاهتمام في توجيه السؤال لأنها أوحت أن اعتماد مصر علي الاتحاد السوفييتي قد لا يكون الواقع الجديد الذي يحكم علاقاتها بالغرب في نهاية المطاف. وخوفا من ألا يستوعب السفير هير الإلماحة المضمرة، مضي ناصر ليقول إن القاهرة لم تقم بإدانة قمع موسكو للثورة المجرية، ونأت بنفسها عن المشكلة فيما كانت الدبابات السوفييتية تهدم المباني في بودابست لأن بلاده أحست أنها معرضة للأخطار وفي حاجة إلي المساعدة بدرجة لم تستطع معها المخاطرة بإغضاب السوفييت وبخاصة في وجود القوات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية بالقرب من قناة السويس، وإن موقفها ذلك كان مسألة بقاء وليس ناجما عن أي مبدأ. ثم تطرق ناصر إلي المسألة للمرة الثانية كي يتأكد من استيعاب السفير لمقصده وقال له إنه مدرك تماما لحقائق المأساة المجرية وأنها تؤرقه.

كان هير يعلم أن عبدالناصر كان مقررا له أن يسافر إلي موسكو في القريب العاجل وأخبر السفير بوجود حزمة من المستندات علي مكتبه التي كان سيأخذها معه. سأله السفير عن نتيجة اللقاء التي يتوقعها، وأجابه ناصر أن البند الأول علي الأجندة هو تخفيض أسعار الأسلحة التي طلبتها سوريا لكنه أكد أنه لن يطلب مساعدات أخري،

أو يسعي إلي الحصول من السوفييت علي أي التزام سياسي، كذلك، فلن يحصل السوفييت منه علي أي التزام أيضا. ثم أضاف إن البيان الختامي سيعكس روح الحياد كما عبرت عنها مقررات مؤتمر باندونج، لكنه عاد فقال إن الحياد لا يعكس موقف الجمهورية العربية المتحدة من ثم فإنهم يفضلون مصطلح عدم الانحياز. كان التعليق النهائي علي هذا الحديث الذي بعث به هير إلي واشنطون هو مناشدتها بإعطاء إجابة عن «هدف» أمريكا بأسرع وقت ممكن وقبل أن يغادر ناصر القاهرة إلي موسكو.

لم تجد فكرة إشعال حرب مزايدات لصالح مصر ترحيبا كبيرا حيث قال الناقدون وبخاصة الموالون لإسرائيل إن ثمة حدودا لما بإمكان واشنطون فعله لاسترضاء ناصر بل إن الخطوات التي اتخذتها فى هذا الاتجاه كانت بأكثر مما يجب. لكن المزايدة كانت قائمة بالفعل في لبنان حيث كان الأمريكيون يزودون المرشحين لانتخابات الرئاسة لخريف عام ١٩٥٧ من المعادين لناصر بالأموال، فيما وجهت إذاعة صوت العرب من القاهرة هجوما شرسا علي الرئيس اللبناني كميل شمعون الذي كان ترتيبه الثاني بعد نوري السعيد علي قائمة الرؤساء الذين كان ناصر يعاديهم.

كانت لبنان تقترب من حرب أهلية شاملة حينما طلب شمعون من حلفائه الأمريكيين أن يضمنوا له الاستمرار في رئاسة لبنان بأية وسيلة، نزيهة كانت أم خبيثة ملتوية. كان يخطط لإدخال تعديل علي الدستور يسمح له بالبقاء في السلطة، وألح السفير الأمريكي رويرت ماكلينتلوك علي الإدارة كي تدعمه وإلا أدي خضوعه للضغوط الداخلية إلي إحباط العناصر الموالية للغرب في أنحاء الشرق الأوسط: «علينا العمل معه علي كسب معركته وبتأييد كبير». وعلي الرغم من أن صوت العرب استمر في هجومه الشرس علي شمعون إلا أنه من الصعب القول إن مصر هي التي أججت التمرد، لكن هذا لم يمنع دالاس من أن يقول لساردار محمد داود، رئيس الوزراء الأفغاني، إن عبدالناصر كان شخصية متقلبة جداً: «أحيانا يبدو هادئا ومنطقيا، لكنه سرعان ما تتملكه العاطفة ويخطب في الجماهير مؤججا مشاعرهم ومناديا بالوحدة العربية مثلما كان هتلر ينادي بالوحدة الألمانية من أجل توسيع نطاق سلطته».

وفيما نشطت القوي المؤيدة لناصر في لبنان لم تأبه واشنطون لحقيقة ما إن كان للزعيم المصري دور في تأجيج المشاعر أم لا. قال دالاس «إن هذا سيعلي من مكانة ناصر ويُثبط بحدة العراق والعناصر الأخري الموالية للغرب بالمنطقة».

وعلي الرغم من عدم استطاعة واشنطون العثور علي مؤشر يدل علي أن «الشيوعية الدولية» قد سيطرت علي لبنان، قامت الولايات المتحدة بإنزال قوة لها قوامها حوالي عشرة آلاف جندي هناك في ١٥ يوليو ١٩٥٨ لتبرهن واشنطون علي أنها لا تتخلي عن أصدقائها. استُدعِي قادة الكونجرس إلي البيت الأبيض في تكرار للمشهد الذي تدخل فيه دين أتشسون عام ١٩٤٧ للإعلاء من شأن التقرير الهادئ للوزير مارشال عن الوضع في اليونان وتركيا وإضفاء أبعاد عالمية عليه. قام الوزير دالاس، علي الفور، بتنبيه أعضاء الكونجرس إلي أنه علي الرغم من أن إرسال واشنطون قوة عسكرية إلي لبنان قد يبدأ شيئا لا تستطيع إنهاءه بسهولة، ومن ثم يزيد المشاعر المعادية للغرب بين الجماهير العربية إلا أن عدم التدخل كان لابد وأن يعطي انطباعا بأن الولايات المتحدة ضعيفة، وأضاف أن أولي مغبات عدم التدخل كانت لابد وأن تكون الإطاحة بالحكومات (اللاناصرية) في الشرق الأوسط والمناطق المجاورة «كان لابد أن تكون مغبة عدم تدخلنا ضارة جدا وتحدث آثارا سلبية من المغرب وحتي الصين الهندية، وكانت تركيا وإيران وباكستان ستشعر أننا نخشي الاتحاد السوفييتي، ومن ثم، يفقدون الثقة فينا ويتوجهون إلي الحياد».

علي الرغم من أن المارينز ظلوا بلبنان ثلاثة أشهر بيد أن نتيجة التدخل كانت زيادة تأثير ناصر وشعبيته، أما الأمر الإعجازي الذي حدث، فهو أن الجنود الأمريكيين لم يطلقوا رصاصة واحدة، علي حين أن الحكومة التي تشكلت ضمت شخصيات قيادية كثيرة موالية لناصر. كتب كوبلاند يقول «لقد توفي مبدأ أيزنهاور».

ومع اندلاع ثورة العراق التي أطاحت بحكومة نوري السعيد وصلت مكانة ناصر إلي ذروتها في نهاية عام ١٩٥٨ وعام ١٩٥٩، حتي مع خلافاته المتزايدة مع الاتحاد السوفييتي والتي جعلته يفكر في تحسين العلاقات بواشنطون. في ١٩ يناير ١٩٥٩،

أجري دالاس حديثا مع السفير الإسرائيلي آبا إيبان تطرق إلي الثورة التي اندلعت هناك وأطاحت بنوري السعيد حيث عبَّر إيبان عن أمله في ألا تدعم الولايات المتحدة عبدالناصر كي تجابه التيار الشيوعي الذي اجتاح العراق، كتب دلاس قائلا «قلت إن كان عليَّ أن أختار بين الشيوعيين وعبدالناصر، أظن أن عبدالناصر هو شر أقل».

مراجعة المواقف في القاهرة وواشنطون:

كان نوري السعيد من أوائل الموقعين علي حلف بغداد ومن أهم ركائز نفوذ واشنطون في الشرق الأوسط، أو عميلا للإمبريالية وفقا لرؤية القاهرة له. وبوصفه أحد أعضاء «نقابة الملوك العرب» فقد كان شوكة في جانب ناصر. حاولت القاهرة استخدام الملاطفة معه وحينما فشلت جهودها لجأت إلي أساليب أشد كان من نتائجها الحملات التي شهدتها شوارع العراق، سعي ناصر علنا إلي التأثير في توجهات حكومة خليفته عبدالكريم قاسم.

بيد أن محاولاته لقيت فشلا ذريعا، يضاهي فشل الولايات المتحدة في ترويض القائد الجديد. بدأ قاسم، بمجرد توليه السلطة، في إحداث تغييرات في الوضع الداخلي بأساليب جد خطيرة حسب رؤية واشنطون لها. انسحب من حلف بغداد دونما إيماءة إلي رعاته الغربيين، ثم بدأ في تحدي شركة البترول العراقية IPC، والتي كانت أمريكا وهولندا تملك أسهم الغالبية فيها، كما هدّد وجود الكويت كمشيخة مستقلة: ذكرت التايم مجازين بعد تسعة أشهر من إطاحته بالملكية، وقتل نوري السعيد، رجل العراق القوي، ما يلي «غدت الأرض التي كان يقول البعض إنها الفردوس الأرضي، مكانا للإرهاب والتآمر والتآمر المضاد».

دبرت السي أي إيه بعض تلك المؤامرات. كان قاسم قد رحب بمساندة الحزب الشيوعي له، وفي هذا الصدد ذكرت التايم ما يلي «إن العراق اليوم بلد لا ينقد الحريصون فيه الحزب الشيوعي علناً» ورأت أن الشيوعيين يسيطرون علي الدهماء وعلي الصحافة وعلي أجزاء من الحكومة وأضافت «وصل المشهد الكابوسي إلي الحد الذي أصبح فيه العامة في إحدي المدن (البصرة) علي الأقل، علي قناعة تامة

بأن الشيوعيين قد أعدوا قائمة بتصفية عدد من الموظفين المحليين والتجار والمهنيين بمجرد أن تتاح الفرصة». وفقا لما قاله سرچي نجل الرئيس السوفييتي خروشوف، فقد شعر والده بالابتهاج لقرار قاسم السريع بالانسحاب من حلف بغداد قائلا، إنه طبقا لمعايير هذا الزمان فإن ذلك يعني أن العراق قد أصبحت تلقائيا «تابعة لنا»، «مثلنا». أصدر نيكيتا خروشوف بيانا عاما عاصفا جاء به أن السوفييت سيقومون بدعم الثورة المعادية للكلونيالية ليس بالكلمات فقط «بل بالقوة المسلحة إذا اقتضي الأمر».

كان خروشوف قد أعلن مُهدّدا أثناء أزمة السويس أن لديه صواريخ ICBMs جاهزة للدفاع عن مصر إذا استمر الغزاة في هجماتهم، لكن القوة الحقيقية التي أجبرت البريطانيين والفرنسيين والإسرائيليين علي التراجع كانت هي الضغوط التي وضعتها الولايات المتحدة علي الجنيه الاسترليني وتحذيرها لإسرائيل بخصوص المعونة الاقتصادية التي تتلقاها. لكن خروشوف اعتقد أن روسيا كان لها القول الفصل في الحالتين، وشجعه هذا علي البحث عن سبل جديدة لإثارة العواطف القومية في الشرق الأوسط. كان ناصر، وقت اندلاع ثورة ١٩٥٨ العراقية، ضيفا علي خروشوف الذي كتب في مذكراته يقول عنه «لقد أحببته كثيرا».

أراد ناصر العودة إلى مصر مباشرة لاعتقاده أنه بذهاب نوري السعيد فقد تصبح العراق العضو الثالث في الجمهورية العربية المتحدة. كتب خروشوف يقول «كانت تلك رغبة متفهّمة تماما – لكن، وكما اتضحت الأمور، لم يكن ثمة سند لآمال ناصر أو لمعلومات عن قاسم الذي ثبت أنه شديد التقلب سياسيا». وفي واقع الأمر، فقد أثبط القائد السوفييتي آمال ناصر في روسيا، وبرهنت محادثاتهما في موسكو علي أنها بداية لبرود في العلاقة بين البلدين. لم تُحرز جهود ناصر لغرس الوحدة العربية بالعراق أي نجاح، بل إن ما أحدثته من انقسامات عمل علي مفاقمة الصراعات القائمة بالفعل، الدينية والمذهبية منها وأيضا الطبقية. كان قاسم يواجه مصاعب جمة في التحكم في تلك القوي جميعها، وخشي ناصر، وأيضا صناع السياسة في واشنطون، من أن يخرج الشيوعيون من تلك الصراعات أقوي المتنازعين علي السلطة.

حاول قاسم التغلب علي المعارضة الداخلية بتشكيل مجلس من ثلاثة أعضاء: عربي سني، وعربي شيعي، وكردي للتغلب علي الانقسامات الطائفية والإثنية. أيضا، قام بإغلاق القواعد العسكرية البريطانية وطهّر الحكومة من المستشارين والمقاولين الغربيين، ووعد أكراد الشمال بمزيد من الاستقلال الذاتي. جاء بإحدي خطبه لحشد الدعم لسياساته: «إذا تجولت في أي جزء من بلدنا فستري المدي الهائل للبؤس والفقر والحرمان في حياة الناس. ستري الأكواخ، والهياكل العظمية المتحركة. لقد سُرِقت ثروة هذا البلد وبدِّدت لصالح الإمبريالية والأجانب».

لم يكن خطاب قاسم بأسوأ من حملات ناصر حينما قام بتأميم القناة، لكن مصير القناة كان يختلف عن التهديد الموجه للسيطرة الغربية علي حقول النفط المنتشرة في أنحاء المنطقة. سرعان ما بدأ قاسم يُنفّذ إجراءات تعتبر تهديدات حقيقية للمصالح الأمريكية المهمة مثل شركة النفط العراقية IPC والكويت، وقد ظلت كلتاهما تمثلان مشاكل مترابطة مضت تهيمن علي الجدالات السياسية لفترة طويلة تالية بغض النظر عمن كان بالسلطة في العراق. كانت المواقف العراقية من شركة النفط العراقية، تتعلق في غالبيتها بالأسلوب الذي به كانت الدول الأعضاء في الشركة تحاصص إنتاج النفط في مختلف البلدان شرق الأوسطية. منذ فترة تشكيل البلد بعد الحرب العالمية الأولي، ظلت شركة النفط العراقية تحوز امتيازات شاسعة علي معظم أراضي العراق، لكنها كادت ألا تفعل شيئا إزاء تطويرها، واحتفظت بالمساحات المحتمل وجود النفط بها للاستخدام في المستقبل. أيضا تحكمت شركات النفط في الإنتاج القائم وكانت تقرر أية آبار يضخ منها النفط ولصالح أي بلد.

كان قاسم، بُعيد ثورة يوليو ١٩٥٨، وفي ذهنه ما حدث لمصدق، قد أكد للندن وواشنطون أنه لا ينوي تأميم آبار النفط، لكنه كان يعلم أيضا أن إيران ما بعد مصدق وكذلك المملكة العربية السعودية كان باستطاعتهما الدخول في تفاوضات حول امتيازات جديدة للأراضي التي لا تغطيها الامتيازات الأصلية، وكان هذا خيارا لا تملكه بغداد نظرا لحجم الأراضي التي تدخل في نطاق الامتيازات الممنوحة بالفعل

لشركة النفط العراقية. لا غرو أن حاول قاسم تصويب ذاك الوضع بأن ضغط من أجل مفاوضات مع IPC لعقد اتفاقية جديدة، وكان هدفه إقناع الشركة بالتنازل عن ٦٠٪ من المساحات التي تحوزها بمقتضي الامتيازات الممنوحة لها وأن تسمح بترتيبات لإجراء مزيد من التنقيب. كذلك فقد طالب بمضاعفة الإنتاج من الآبار القائمة وإقامة معامل تكرير في العراق. لكن الشركة أتت بعرض مضاد غامض ينص علي زيادة الإنتاج وفقا لأحوال السوق، ولا شيء أكثر من هذا. كان تكدس المتوفر من النفط الخام قد منحهم ميزة في المحادثات المستطالة التي أعقبت ذلك، وكان من الواضح أن IPC كانت تنوي أن يظل تحكمها التام قائما علي جميع أوجه تلك الصناعة. كتب أحد المراقبين المحنكين يقول «نجد أنفسنا مجبرين [كمراقبين] علي الانتهاء إلي أن سلوك الشركة يشير إلي قرار بجعل العراق نموذجا للآخرين وأن ثمة نكهة سياسية قوية في هذا القرار».

بيد أن القائد العراقي لم يقنعه رفض أهدافه الأساسية بالرغم من امتيازات الشركة الكثيرة، وبالرغم من الانقسامات الجديدة التي كانت تحدث في بلده وبخاصة بين مؤيدي ناصر والمعادين له. قامت واشنطون بهدوء، في محاولة منها لتعزيز مصالحها، بدعم حملات المؤيدين لناصر والذين كانوا يحاولون خلع قاسم، ومعها دعم حملاته المنادية بالوحدة العربية والمعادية للشيوعية، وهي محاولات لم تخل من مخاطر، حتي علي الرغم من التعاطي مع هذا الدعم بدرجة قصوي من الحرص، كما أنه لم يكن صناع السياسة الأمريكيون علي معرفة بما قد ينجم عن أنشطة الزعيم المصري وطموحاته، علاوة علي أن دعمهم لناصر قد يرتد علي القاهرة ويؤدي إلي ما هو أسوأ. ذكرت وزارة الخارجية في إحدي مذكراتها أن مبالغة الولايات المتحدة في دعم ناصر قد تعطي أعداءه بالعراق والبلدان العربية الأخري الفرصة للقول بأنه عميل إمبريالي. بيد أنه كان ثمة أخطار في إثباط محاولات ناصر، ومن ثم، كان الوضع بأكمله مليئاً بالمنزلقات كما جاء في مذكرة وزارة الخارجية المشار إليها: «علي حين أن صراع ناصر الراهن مع الشيوعيين يفتح فرصا جديدة أمام الغرب إلا أنه لم

يغير من مواقفه الداعية للوحدة العربية والتي تتضمن القضاء علي ما تبقي من مواقع غربية بالمنطقة، وبخاصة النفوذ البريطاني في المنطقة».

كان ناصر رجلا ذا نزعات كثيرة وطموحات كبيرة، علاوة علي أنه كان انتهازيا ماهرا يلعب أوراقه بحيث يستثير الأمريكيين بأسلوب يوفر له أكبر قدر من الخيارات. في إحدي المرات أرسل محمد حسنين هيكل إلي السفارة الأمريكية ليبلغهم أنه أُجبر علي إلغاء خطة للهجوم علي الشيوعيين في سوريا وذلك بعد أن سربت إحدي الديبلوماسيات الأمريكيات وتدعى دانا آدمز شميت نيته في مقال صحفي لها، بل إنها أيضا زعمت في المقال أنه يطمح إلي تأجيج ثورة في الأردن موالية لمصر، وأيضا وضع مخطط عراقي/ كويتي/ مصري لتطوير الصناعة النفطية، وأنهت مقالها بالقول «إن المعونة السوفييتية هي أسوأ مشاكل ناصر. إنه يعتقد أن بإمكانه احتساء خمر المعونة السوفييتية دون أن يثمل إذا استطاع أن يقرر علي وجه الدقة أنه أخذ كفايته منها. إنه يود الحصول علي المزيد من المعونة الأمريكية كي يعادل ما تناوله من السوفييت». وقد أثارت تلك المزاعم استياءه.

أدي سياق تلك الاتصالات الأخيرة، وتقدير شميت للموقف بناء علي التسريبات التي وصلتها عن مأزق ناصر، إلي أن يعاود أيزنهاور النظر في العلاقات الأمريكية المصرية. وفي نهاية العام ناقش أيزنهاور مع كبار مستشاريه الأوضاع مع ناصر. انتهت نقاشاتهم التي كانت قد جرت بالسفارة المصرية مؤخرا إلي أن «عبدالناصر يريد التعاون معنا في الشأن العراقي لأنه مهتم جدا بالنفوذ الشيوعي في وجود قاسم، بل إنه صرح أن قاسماً يرفض التحدث إليه».

علق الرئيس بشكل كاد يكون رغبويا قائلا «لولا وجود إسرائيل لكان بإمكاننا العمل مع ناصر حيث إن باستطاعته مجابهة الشيوعيين بأفضل مما تستطيعه الولايات المتحدة في ذلك الصراع ثلاثي الأركان بالشرق الأوسط». أضاف كرستيان هرتر، وزير الخارجية الذي كان قد خلف دالاس، أن عبدالناصر قد أصبح مؤخرا أكثر اعتدالا بخصوص الشأن الإسرائيلي بل إن فكره بشأن الوحدة العربية قد لا

يكون شيئا إذ إن ثمة «عنصرا صحيا في حقيقة أن رجلا قويا عربيا بهذه المكانة الهائلة ليس بحاجة للتنافس مع البلاد العربية الأخري في الإيقاع بإسرائيل». بعد هذا النقاش أنهي أيزنهاور الاجتماع بقوله «لقد نضج ناصر بعض الشيء».

بدأ الجهد الأمريكي للتخلص من قاسم في ربيع ١٩٥٩ حينما واكب متطلباته التفاوضية مع IPC نفوذ متزايد للحزب الشيوعي وسلسلة من الإيماءات باتجاه الاتحاد السوفييتي. وكما تكشفت الأحداث، فقد ثبت أن عبدالناصر مفيد بأكثر من أسلوب للنجاح النهائي للخطط الأمريكية.

مضي آلان دالاس، مدير السي آي إيه يبين أثناء مداولات الإدارة الأمريكية حول العراق أسباب خطورة قاسم. في اجتماع لمجلس الأمن القومي يوم ٢ إبريل ١٩٥٩ مضي الرئيس يستعرض الوسائل والأساليب التي يمكن بها دعم جهود ناصر لمقاومة الشيوعية. كتب مسجل وقائع الاجتماع يقول «بدا للرئيس أن علينا البدء علي الفور إذا كنا فعلا سنضطلع بمهمة إنقاذ العراق» لكن آلن دالاس حذر من أن الوضع «شديد التعقيد» ومن أنه ليس جميع أصدقاء أمريكا يشاركون صناع السياسة الأمريكيين رؤيتهم للوضع. لكن أيزنهاور مضي يعاود ذكر ناصر كحليف محتمل آداتي في التخلص من قاسم، وجاء بالمحضر «كان مازال لا يستطيع فهم سبب عدم استطاعة ناصر جعل مجابهة الشيوعية قضية مشتركة بينه وبين قاسم». رد دالاس بالقول إن ذلك غير ممكن حيث إن العلاقات بينهما مريرة بدرجة عدم جدوي الأمل في حدوث حل كهذا.

تدخل دوجلاس ديلون، مساعد وزير الخارجية، بالقول إنه لو عُرِف أن خطط الولايات المتحدة تتسق مع خطط الجمهورية العربية المتحدة ضد بغداد فإن ذلك سيدفع العراق أسرع إلي أحضان الشيوعية. وفي الاجتماع التالي لمجلس الأمن القومي عقب أسبوعين قال دالاس مدير السي آي إيه إنه متشائم لأقصي الحدود حول الوضع في بغداد هذا علي الرغم من أن الحكومتين البريطانية والتركية أصبحتا تتفقان مع واشنطون حول طبيعة التهديد. قال «إن عددا من أكراد الاتحاد السوفييتي

الذين يجري إعاقة توطينهم بالعراق، يضمون بينهم عددا من العملاء السوفييت كفيلا بأن يعمل علي تحقيق رغبات الكرملين في تقويض الحكم العراقي».

كان دالاس قد صاغ سؤاله بما يتسق تماما مع منطق مبدأ ترومان. طوال الحرب الباردة، ومن أمريكا اللاتينية وحتي جنوب شرق آسيا، كان منطق مبدأ ترومان يتسق تماما مع المفاهيم الأمريكية عن نظرية «العملاء» بالنسبة للثورات، والتي كانت تذهب تحديدا إلي أنه «بما أن الولايات المتحدة بلد معاد للإمبريالية ومحل للثقة، بل مكرس لحق تقرير المصير، فإن الثورات التي تخلط القومية بالماركسية لابد وأن تكون من تدبير العملاء وليست تعبيرات حقيقية عن الحق في تقرير المصير».

وفيما استمر النقاش، علق ريتشارد نيكسون، نائب الرئيس بالقول «يبدو من غير المحتمل أن نستطيع العثور علي موقف وسط بين تحكم الشيوعيين في العراق وبين تحكم ناصر». أي بتعبير آخر لم يقله نيكسون، فقد كان ناصر «عميلنا» في هذا الوضع تحديدا وكان نيكسون يجد صعوبة، وفقا لما قاله، في رؤية إمكانية ألا تكون لجميع البدائل التي بحثوها تداعيات خطيرة من حيث العلاقات الأمريكية مع البلاد العربية، بيد أنه في النهاية قال «لا يمكننا السماح للشيوعيين بالاستيلاء علي العراق، من ثم فإننا نعمل علي اتخاذ خطوات لمنع حدوث ذلك، أو للإطاحة بأي نظام شيوعي يقوم في العراق».

ثم أثير السؤال حول ما إن كان استخدام القوة العسكرية أكثر سوءا من دعم ناصر؟ التقط الجنرال نايثان تونينج، رئيس هيئة الأركان المشتركة، خيط ما عناه نيكسون ومضي به إلي نهايته المنطقية «باستطاعتنا بسهولة الاستيلاء علي العراق بالقوة العسكرية. إذا وُضعت الاستعدادات المناسبة مقدما». لكن كان ينبغي إذا ساروا في هذا الطريق، إعداد الرأي العام. حذر روبرت بي. أندرسون، وزير الخزانة، الحضور من تكرار خطأ المضي في الأحاديث وترك الشيوعيين يهيمنون كما حدث في الهند الصينية، واعتقد أن نظرية الدمينو تنطبق علي الشرق الأوسط بأكثر ما تنطبق علي جنوب شرق آسيا ثم تساءل إلي أي حد تستطيع واشنطون الانتظار قبل

أن تتخذ الإجراءات اللازمة؟ أكد أن شعب الولايات المتحدة سيتفهم الأمر – فبعد كل شيء، فقد سارت الأمور بسلاسة حينما رست القوات الأمريكية بلبنان الصيف السابق، وعلي الإدارة تشكيل مجموعة مهمتها الوحيدة وضع خطط لمنع الشيوعيين من الاستيلاء علي العراق، ثم ختم أندرسون حديثه بالقول «لا نريد ديان بيان فو أخري».

في واقع الأمر، فقد كانت هذه المهمة قد أنيطت بالفعل بإحدي المجموعات التي ترأسها ويليام رونتري مساعد وزير الخارجية الذي افتتح أول اجتماع كامل لها في ٢٧ أبريل ١٩٥٩ ببيان قال فيه إن «ثمة قدراً معيناً من التشوش حول أهدافنا في نظام ما بعد قاسم بالعراق» واستمرت اجتماعات هذه اللجنة عبر الشهور وتناولت الاحتمالات التي تراوحت بين خيار تشجيع ناصر علي التدخل الذي لابد وأن تعارضه إسرائيل ومعها أصدقاء أمريكا بالمنطقة – وبين تشكيل حكومة بالمنفي من اللاجئين منذ فترة ما قبل الثورة، إلي تحذير قاسم من أنه إذا لم يكن يريد مساعدة واشنطون علي هزيمة الشيوعيين فسيكون هناك تدخل في كل الأحوال. في أكتوبر راجعت المجموعة جميع البدائل وسمعت من أحد أعضائها أن الطريق الأكثر احتمالا كان هو الاغتيال الذي يتم من خلال انقلاب عسكري «ويمكن للجيش الإمساك بمقاليد الأمور مع وجود فرصة أقل لحدوث فوضي في تلك الحالة الطارئة».

وبعد فشل محاولة لاغتيال قاسم في ١٩٥٩، فر أحد المتآمرين، واسمه صدام حسين، هاربا إلي القاهرة، حيث ظل ينتظر فرصته تحت أعين السي آي إيه اليقظة. وعلي الرغم من أن المسيرة كانت قد بدأت تتحرك وانتهي بها الأمر في نهاية المطاف إلي انقلاب عسكري والتخلص من قاسم، إلا أن ذلك استغرق أربعة أعوام. وعلي الرغم من أن عددا من الزعماء المتعاطفين مع قاسم مثل المارشال تيتو كانوا قد نبهوه إلا أن قاسماً، حينما تبلورت المخططات وأصبحت فعلاً منسقا، كان قد أقنع نفسه بأن باستطاعته التعاطي مع المؤامرة. كان رجل السي آي إيه المسئول عن تنسيق الاتصالات داخل العراق مع عناصر القوات المسلحة المنشقة هو ويليام ليكلاند

(ظاهريا مساعد الملحق العسكري)، وكان قد عمل بمصر منذ سنوات في أيام ناصر المبكرة. وقبيل نجاح الانقلاب اتصلت السفارة بالمتمردين ووعدتهم بالاعتراف الدبلوماسي بهم علي الفور. قال علي صالح سعدي، وزير الداخلية في أول حكومة بعد قاسم، متفاكها «لقد جئنا إلي السلطة علي قطار السي آي إيه». وعقب الانقلاب مباشرة تم اعتقال المئات وتعذيبهم ثم قتلهم. أما الرجل الذي اضطلع بالدور القيادي في تلك العملية فكان صدام حسين.

أفضل المخططات:

لا يُعرف ما إن كان ناصر قد اشترك مع صدام حسين أم لا، لكن المؤرخ سعيد أبوالريش لا يعتبر أن لذلك أهمية إذ إنه يري أن عبدالناصر كان يعمل مع السي آي إيه في الشأن العراقي وأنه كان قد أصبح يكره قاسماً بمثل كراهيته لنوري السعيد وكان علي استعداد للعمل مع الأمريكيين لإسقاطه حيث يقول أبوالريش «لقد كان قد توصل إلي اتفاق مع السي آي إيه بحيث تخلّص الاستخبارات الأمريكية العراق من قاسم نظير وعد ناصر أن يترك للسي آي إيه مهمة التحكم في العراق»[1].

نجم عن تحالف المصالح هذا ديكتاتورية وحشية بالعراق، وفي نهاية المطاف حربان في عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٣[2] اللتان تبادلت في نهايتهما الولايات المتحدة ومصر، والتي كان يحكمها حسني مبارك آنذاك، المجاملات للخدمات المخلصة التي قامت بها

(١) هذا كلام مرسل لا يستند إلي أي وثائق، بل إن أي شخص يفكر بقليل من المنطق يعرف أن تعاون السي آي إيه مع عبدالناصر أو العكس كان ضربا من المستحيل، وأن الأسلوب الوحيد الذي كانت السي آي إيه تري أنه يصلح للتعاطي مع عبدالناصر هو اغتياله. وقد حاولت ذلك أكثر من مرة كما هو مثبت في وثائق وزارة الخارجية الأمريكية وفي عدد من الكتب. انظر كوبلاند وحسنين هيكل بين آخرين. كما أن الكاتب هنا، وبخلاف عادته، لا يستند إلي وثائق بل يذكر قولا جاء في كتاب مشكوك في صحته وفي توجهات مؤلفه [الترجمة]

(٢) وهذا اختزال للأحداث يستهين بعقل القارئ وذاكرته إذ إن الجميع يعرف أسباب قيام هاتين الحربين وأنهما صناعة أمريكية بامتياز. انظر كتاب تشالمر جونسون «أحزان الإمبراطورية» الذي أصدرت سطور طبعته العربية، علي سبيل المثال لا الحصر [الترجمة]

أمريكا في إدارة شئون الشرق الأوسط. ثمة خيط تاريخي يمتد من الترتيبات التي تم التوصل إليها بين السي آي إيه وناصر بشأن العراق في ١٩٦٣ إلي الأيام الأخيرة لنظام مبارك في فبراير ٢٠١١ بعد ثورة ميدان التحرير. لم ينقطع الخيط سوي مرة واحدة أثناء حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ثم تم وصله مرة أخري بواسطة أنور السادات الذي أثبت هو أيضا مهارته في اللعبة الديبلوماسية مع الرئيسين الأمريكيين ريتشارد نيكسون وچيمي كارتر.

التقي أيزنهاور عبدالناصر مرة واحدة لدي افتتاح اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر ١٩٦٠، بعد ما يربو قليلا علي الأعوام الثلاثة من وقوف أيزنهاور علي الإسفلت منتظرا ليرحب بوصول الملك سعود إلي أمريكا. تحدث أيزنهاور مع ناصر بجناحه في فندق وادورف تاورز وهو مكان كانت تجري فيه محادثات كثيرة حول اجتماعات الأمم المتحدة. كان الاجتماع لافتا لأسباب عديدة أحيانا كانت الأمور تبدو وكأنما الرئيس الأمريكي والزعيم المصري قد تبادلا أماكنهما، حيث كان أيزنهاور يمضي في التعبير عن أساه من الاتهامات التي تُوجَّه للولايات المتحدة حينما تمنح المساعدات الثنائية للدول الأجنبية بأنها تمارس «إمبريالية اقتصادية»، فيما كان ناصر يطلق التحذيرات من نوايا السوفييت في إفريقيا وفي الجمهورية العربية المتحدة من خلال استغلالهم للشيوعيين السوريين والتلاعب بهم. بيد أنه سرعان ما تحول الحديث إلي التعبير عن الشكاوي القديمة حيث بدأ ناصر بالقول إن شعوب الشرق الأوسط قد ألقت بمسئولية كبيرة علي عاتق الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وماذا كانت النتيجة؟ بدلا من التمسك بمبدأ وودرو ويلسون بشأن الحق في تقرير المصير وميثاق الأطلسي لعام ١٩٤١ والعمل بهما، قامت الولايات المتحدة بدعم قيام دولة إسرائيل.

ثم مضي يسرد كيف أُثبطت محاولاته منذ عام ١٩٥٢ لإقامة علاقات صداقة مع الولايات المتحدة من خلال الحاجز الإسرائيلي، وكيف حاول شراء أسلحة من الولايات المتحدة لكنه لم يمكّن من ذلك – من ثم اتجه إلي الشرق، وأنه، فيما تستطيع

إسرائيل شراء الأسلحة التي تريدها لا يمكن لمصر ذلك. ثم انتقل لمناقشة الشكاوي الأمريكية التي تثار بالكونجرس من أن قناة السويس لم يتم فتحها بعد الحرب الأخيرة كما كان متخيلا وقال «إن كانت الولايات المتحدة تريد القول إن القناة يجب أن تفتح أمام الملاحة الإسرائيلية، فعليها أن تبذل نفس الجهد لجعل إسرائيل تنفذ قرارات الأمم المتحدة التي لم تنفذها أو تأبه بها» وكان ناصر يعني عودة اللاجئين الفلسطينيين الذين اقتلعتهم إسرائيل من موطنهم. أجاب أيزنهاور إنه بالطبع يود لو نُفذ هذا وأضاف إنه «يوافقه علي أن إسرائيل تمثل مشكلة رهيبة» لكنه أضاف «بيد أن إسرائيل حقيقة كائنة» وإن الحل قد يكمن في التعويض بدلا من إعادة توطينهم في أراضيهم لأن السؤال يظل هو كيف تحل تلك المشكلة بدون اندلاع حرب جديدة.

بيد أن هذا كان مجرد بداية الحوار. مضي ناصر يقول إن إسرائيل منذ إنشائها تلقت أكثر من مليار دولار من المساعدات الأمريكية أي بمعدل مليون دولار يوميا تقريبا. أما بشأن ما قاله الرئيس بأن إسرائيل «حقيقة كائنة» فكان جواب ناصر هو أنه يرفض هذه الفرضية قائلا إن قبول إسرائيل كحقيقة يعني السماح للص بالاحتفاظ بما سَرَقه». أنهي أيزنهاور الحديث بأن اقترح أنه لو توصل ناصر إلي وسيلة لحل مشكلة اللاجئين فإنه يأمل أن يخبره بها، لكن عليه أن يفعل ذلك سرا لأنه لو علم أي سناتور بأمر هذا الاقتراح لتحول إلي موضوع للحديث والخطب بالكونجرس. وبهذه الإشارة إلي ما كان ينتظره، أضاف أيزنهاور كلمة أخيرة كيلا يعتقد ناصر أنه وقع في أسر ما قاله الزعيم المصري عن حقائق الحياة في الشرق الأوسط فقال إن الولايات المتحدة تتطلع لتحسين العلاقات مع القاهرة، لكنها تملؤها الشكوك دائما «حينما يقترب أثر السوفييت من أي بلد».

حينما عُلِم أن عبدالناصر كان ينوي القدوم إلي نيويورك لحضور اجتماع الأمم المتحدة، خطرت لوزارة الخارجية فكرة ترتيب جولة في أنحاء نيويورك للزعيم المصري، بيد أنها سرعان ما تخلت عن الفكرة خوفا من تنظيم تظاهرات لدي كل موقع للتوقف علي طول الطريق.

بعد بضعة أشهر، ولدي قدوم جون إف كنيدي إلي البيت الأبيض، أمل أن يبدأ مراسلات ودية مع ناصر في محاولة منه لإثبات أن الديمقراطيين غير منحازين إلي طرف واحد في النزاع العربي الإسرائيلي. في حديث لروبرت كومر، أحد كبار مستشاري كنيدي في شئون الشرق الأوسط، له مع بعض ممثلي دولة إسرائيل الذين كانوا يسعون إلي الحصول علي ترتيبات أمنية أكثر إلزاما، وعلي مزيد من الأسلحة لحماية بلدهم من مصر، ذهب كومر إلي حد القول إن المشكلة الحقيقية بدأت مع صفقة الأسلحة مع الكتلة السوفييتية، ولم يكن ثمة جديد في قوله هذا، لكنه أضاف «إن التهديد العسكري الذي تواجهه إسرائيل» نجم إلي حد كبير من الأخطاء البريطانية والأمريكية في التعاطي مع ناصر! «لقد أسهمنا نحن في هذا الوضع من خلال سياستنا في التعاطي مع ناصر في منتصف الخمسينيات. لقد توجه إلي موسكو في رد فعل له علي السياسة الأمريكية/ البريطانية، ولا نريد تكرار هذا الخطأ مرة أخري».

لم يكن كومر وآخرون دائما بمثل تلك الفظاظة والوضوح لدي الحديث عن الأخطاء الماضية، لكنهم أملوا في إعادة إحياء الحوار الذي انقطع مع القاهرة – أو علي الأقل عدم فقدان الصلة مع ناصر. قبل بضعة أيام من اجتماع له مع جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل، كان كنيدي قد خاطب الزعيم المصري بأسلوب ودي مجامل بشأن سياساته في اليمن حيث كان ناصر يدعم الحكومة الجمهورية الجديدة فيما دعمت السعودية النظام القديم، وأيضا حول مواضيع أخري. قال كنيدي إنه شعر بالسرور أن علم باهتمام مصر بإعادة الهدوء إلي الجزائر ومساعدة اقتصادها، وقال «كما تعلم، لقد اهتممت بخاصة، منذ وقت طويل، بالجزائر، وأوافقك الرأي في أن نجاح جهود الحكومة الجزائرية في العمل علي استقرار هذا البلد المفتاح يعمل في مصلحة بلدينا». ثم أعرب عن نيته في إمداد «الجزائر بعشرات ملايين الدولارات كإغاثة عاجلة» وأضاف كنيدي إنه يأمل أن يشجع ناصر هذا البلد على اتباع سياسات «تعمل علي تعزيز قدرتنا لتقديم مثل هذه المساعدة». كان ثمة الكثير بين أسطر تلك

الرسالة، وكان ناصر يعلم بالتأكيد أن اهتمام كنيدي الخاص بالجزائر يعود إلي الخمسينيات حيث كان قد وجه النقد إلي جهود الفرنسيين لقمع الثورة القومية، كما فهم أيضا أن كنيدي كان يوجه اللوم إلي الفرنسيين لدورهم فى أزمة السويس حيث كانت باريس قد بررت انضمامها إلي العدوان الأنجلو/ فرنسي/ إسرائيلي ليس فقط علي أساس تأميم قناة السويس بل أيضا بسبب مساعدة ناصر للثوار الجزائريين. وكان ثمة المزيد في رسالة كنيدي حيث مضي يقول «نحن إلي جانبكم في الموقف المبدئي الذي اتخذته الجمهورية العربية المتحدة بمؤتمر كولومبو حيث عارضت الاستيلاء علي الأراضي بالقوة المسلحة. أعتقد أن تماثل وجهات نظرنا في هذا وفي قضايا أخري عديدة قد أوجدت اهتمامات مشتركة بيننا مما يُنبئ بنجاح جهودنا التعاونية». كان بالإمكان فهم تلك الجُمَل علي أنها تحذير مضمر لإسرائيل بألا تبدأ حربا جديدة، وأيضا كإشارة ما لدعمه عودة اللاجئين الفلسطينيين. علي أية حال، وأيا كان الأسلوب الذي ينظر به المرء إلي الرسالة، فقد اتخذ كنيدي الاحتياطات وحمي نفسه بأن أرسلها إلي سفيره بالقاهرة لينقلها إلي ناصر «شفاهة» وليس كخطاب رسمي موقَّع. وبعد ثلاثة أيام، اجتمع كنيدي بجولدا مائير بمنتجعه الرئاسي في پالم بيتش، فلوريدا.

كان هدف كنيدي عام ١٩٦٢ استباق حدوث صراع جديد بين مصر وإسرائيل يهدد بنشوب حرب. بدأت مائير الحديث بالتعبير عن اعتقاد إسرائيل بأن مصر كانت تستعد للحرب وأن تل أبيب قد تلقت مؤخرا معلومات «عن تجهيزات مصر لشن حرب نووية» وقالت إنهم يعتقدون أن المصريين يعملون علي تصنيع شكل من القنابل النووية القذرة لتلويث مساحات شاسعة من الأراضي الإسرائيلية وأضافت «يبدو أن المصريين يعتقدون أنه بما أن اللاجئين الفلسطينيين لا يمكنهم العودة، فعلي الأقل لا يجوز إتاحة الأرض للإسرائيليين» وقالت إن لدي بلدها معلومات بأن عبدالناصر خصص ميزانية سرية تتراوح بين ٢٢٠ مليون و٢٥٠ مليون دولار سنويا لتطوير تلك الأسلحة.

أما بخصوص اللاجئين، وما يكمن وراء مطالبات العرب بالسماح لهم بالعودة،

فقد قالت مائير إن العرب الموجودين بإسرائيل يشكلون ١١٪ من السكان، ومع الأخذ في الاعتبار تصريحات العرب في الأمم المتحدة «لساعات وساعات» بأن ليس لإسرائيل حق في الوجود يصبح الدافع واضحا. «هذا هو الوضع. تعلم إسرائيل كنه المخططات العربية لإحضار العرب مرة أخري لإسرائيل ثم جعل إسرائيل جزائر أخري». حيث إن عودة العرب ستثير الاضطرابات وستقوم إسرائيل بما قد تقوم به أية حكومة أخري لحماية نفسها، وهنا يندفع العرب لمساعدة هؤلاء «اللاجئين». بالطبع كان وصف مائير يتسق مع وصف ترومان لكيفية سير الأعمال التخريبية، كما بذلت جهدها من أجل أن تبين ولاء إسرائيل للعالم الحُر.

وبعد هذا العرض الطويل وجهت وزيرة الخارجية لكنيدي بعض العبارات المتعاطفة فقالت إنها تعي أن مركز الرئيس «يتسبب في أن يحمّله مختلف أنواع الناس مشاكلهم، وإسرائيل أيضا تفعل ذلك. فقد اضطلعت الولايات المتحدة بالمسئولية عن العالم الحر وإسرائيل جزء من هذا العالم». ومن تلك النقطة الأخيرة، التقط الرئيس خيط الحديث، وقال إنها علي صواب إذ إن اهتمام أمريكا بالحفاظ علي موازين القوي في جميع أنحاء العالم أدي بها إلي التدخل «في نزاعات لا نراها جزءا من الصراع الأساسي، أي صراع الشعوب الحرة في العالم ضد الكتلة الشيوعية». لكنه انتقل سريعا ليقول إن علاقات الولايات المتحدة بإسرائيل لا تماثل سوي علاقاتها ببريطانيا العظمي، لكن إن كان الأمر كذلك، فإن من الصحيح أيضا أن أمن إسرائيل لن يتعزز إذا تخلت الولايات المتحدة عن جهودها في الشرق الأوسط العربي» ولم تحافظ سوي علي روابطها مع إسرائيل».

ومن تلك النقطة مضي كنيدي يناقش الأساليب المتنوعة التي يمكن بها لإسرائيل مساعدة الولايات المتحدة علي تقديم العون لها وذلك بألا تتخذ إجراءات أحادية في مشاكل مثل تحويل مجري نهر الأردن، وأيضا بتعاونها مع جهود واشنطون لمراقبة مشاريعها للطاقة الذرية. وعلي الرغم من إجابات مائير الاسترضائية إلا أنها لم تظهر أي التزام، واستمرت تلك القضية تمثل مصدر قلق لصناع السياسة الأمريكيين

حتي مقتل كنيدي. أما ليندون جونسون فكان أقل مثابرة في متابعة تلك القضية، وفيما توسعت حرب ڤيتنام، غدا أكثر حرصا علي عدم تحدي أيٍّ من حلفائه المفيدين له. كان كنيدي أيضا قد استغرق وقتا طويلا، وفكر مليا، قبل أن يوافق علي تزويد إسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات لخشيته أن يصبح ذلك منحدرا زلقا يؤدي إلي سباق تسلح جديد، لكنه انتهي إلي أن تزويده إسرائيل بالصواريخ التي تريدها قد يوفر له رافعة في محادثاته مع القادة الإسرائيليين حول أخطار الأسلحة النووية، واستعداد الاتحاد السوفييتي لدعم العرب [مصر] بما يناظر أي إنجاز لإسرائيل في هذا المجال. لكن في عام ١٩٦٢ ومع اقتراب موعد انتخابات الكونجرس، وافق كنيدي أخيرا علي بيع إسرائيل تلك الصواريخ، واعتقد أنه بفعله ذلك فإنه يقدم للإسرائيليين برهانا صادقا علي نوايا الأمريكيين في تمكينهم من الدفاع عن بلدهم ومن ثم، لا تعود ثمة حاجة لإسرائيل لتطوير أية أسلحة نووية.

دائماً ما تحتفظ إسرائيل بورقة مفتاح رابحة تلعب بها في التفاوضات حول طلباتها من الأسلحة، وكانت الورقة في تلك الحالة هي عدم استعداد الولايات المتحدة في ظل كنيدي أو جونسون للوفاء ببنود معاهدة الأمن الثنائية التي تربط الطرفين. كانت إمكانية اغتراب البلاد العربية – أو الخوف من أن تتورط الولايات المتحدة في حرب نووية تندلع بسبب الحدود التي لم يتم تعيينها في حرب ١٩٤٨ أو أزمة السويس – كانت مخاطر أكثر هَوْلاً ولا يمكن التغلب عليها حتي بالنسبة للفريق الموالي لإسرائيل بالكونجرس. كانت جولدا مائير قد لعبت بورقة مماثلة في حديثها مع كنيدي في ديسمبر عام ١٩٦٢ حيث اقترحت أن المناقشة التالية لمسألة اللاجئين ينبغي أن تتم في القدس في وجود الديبلوماسيين العرب والإسرائيليين وهم يجرون تفاوضات مباشرة، حيث كان من الواضح أن عبدالناصر وجميع الآخرين لن يقبلوا هذا الاقتراح، من ثم أتاح هذا لمائير أن تنهي الحديث بتهديد: إذا كانت مصر ترفض التعامل [مع إسرائيل] مباشرة فهذا يرجع إلي أنها كانت تخطط لتنفيذ التهديدات العربية ضد الوجود الإسرائيلي.

أتت إدارة كنيدي بعدة خطوات معقدة في محاولة منها لاسترضاء ناصر بعد صفقة صواريخ هوك، وكان من بينها برنامج معونة كان له أن يمد مصر بالقمح مجانا بشكل أساسي، وكانت تلك الصفقة تقدر بعدة ملايين من الدولارات. بيد أن الصحافة المصرية، لدي الإعلان عن مبيعات الصواريخ، انفجرت في غضب عارم، حيث قالت إحدي تلك الصحف والتي كانت معروفة بروابطها مع ناصر، إن كل قطعة سلاح أعطيت لإسرائيل «تم استخدامها لإراقة الدماء العربية». أما خارج دائرة ناصر في البلدان العربية، فكان رد الفعل هو الصمت أو توجيه النقد منخفض الصوت، بما في هذا العراق والسعودية. وهكذا، فحينما أدي اغتيال كنيدي في نوفمبر ١٩٦٣ إلي نهاية مبكرة لإدارته، كانت محاولته إيجاد علاقات أكثر دفئا بين القاهرة وواشنطون قد باءت بالفشل إلي حد كبير.

قام وليام آر بولك، الخبير في شئون الشرق الأوسط في مجلس وَضْع السياسات بوزارة الخارجية، بكتابة مذكرة إلي الرئيس جونسون في ١٤ أبريل ١٩٦٤، أوجز فيها بإتقان سياسة الولايات المتحدة تجاه مصر، حيث جاء بالمذكرة إن الفرص المتاحة لمصر، ومن ثم فائدتها للولايات المتحدة، تعتمد علي نموها الاقتصادي، وذلك لأن ما تشهده من معدل نمو سكاني يبلغ ٣٪ سنويا، ويتضاعف كل عشرين عاما، مع ما يتطلبه هؤلاء من حياة أفضل، والتي إن لم تتحقق، فسيُجبر قادتهم علي اتباع سياسات أكثر راديكالية بالداخل، وتكوين علاقات أوثق مع الكتلة السوفييتية. أما سبب أهمية ذلك بالنسبة للولايات المتحدة، فقد أوضحتها المذكرة بالقول إن مصر هي قائدة الدول العربية، كما أنها قوة كبري في مجموعات الدول الأفروآسيوية ودول عدم الانحياز، كما أن مصر تقوم أحيانا بالاعتراض علي مصالحنا في المنطقة ووضع العقبات في سبيلها، ثم عدَّد تلك المصالح وذكر أنها تشمل «الاستثمارات النفطية التي تبلغ حوالي مليار دولار سنويا، وقاعدة هويلس الجوية بليبيا التي يتدرب بها الطيارون الأمريكيون الذين يلتحقون بالناتو، وقناة السويس، واستخدام المجال الجوي العربي ومرافق الهبوط.. وأمن إسرائيل». ومصر في كل هذا، في وضع يمكنها من مساعدة مصالح الولايات المتحدة أو معارضتها وتعويقها، أو أن تلتزم الصمت ببساطة، «وبعامة، فإن مصر بعدم فعلها أي شيء تخدم مصالحنا».

ماذا عن ناصر إذن؟ «وبما أننا غير قادرين علي تدمير ناصر، أو أن نأتي محله بحكومة قابلة للحياة وأكثر اعتدالا، وبما أننا لا نريده أن يعتمد كلية علي الاتحاد السوفييتي، أو أن تحل محله حكومة أكثر تطرفا» فإن البديل الوحيد هو مساعدة التنمية ومساهمة الولايات المتحدة فيها، التي ستكون في غالبيتها إرسال شحنات قمح وفقا لبرنامج PL480 [يدفع ثمن هذا القمح الفائض عن احتياجات أمريكا بالعملة المحلية للدولة المشترية] ستناظر الفرق بين معدل نمو السكان (٢٪) وبين الزيادة في إجمالي الناتج القومي GNP الذي يتراوح بين ٥٪ و٦٪». وهذا التوازن الرهيف، كما أسماه وولت روستو مساعد جونسون الخاص لشئون الأمن القومي، ينبغي اتباعه والحفاظ عليه في الإجراءات الأخري أيضا حيث كرر بولك قوله «إذا لم يكن باستطاعتنا تدمير ناصر، فما ينبغي علينا فعله هو أن نحاول أن نجعل مواقفه أقل حدة بحيث تظل علي عتبة الخطر الحقيقي لمصالحنا». رأي أن ثمة أساليب منوعة لتحقيق هذا الهدف: التهديدات المباشرة باستخدام القوة، اتخاذ الإجراءات في مجلس الأمن؛ إمداد إسرائيل بأسلحة دفاعية، التعاون مع وكالات استخبارية صديقة مثل الاستخبارات الأردنية [وتقديم المساعدات المباشرة لتلك الدولة]، والتبادلات الديبلوماسية.

علي أية حال، فقد انتهت المذكرة بوضوح إلي أن «عبدالناصر لن يكون أبدا صنيعة لنا»، لا، بل وإلي جانب تلك الحقيقة، فإنه لن يثق أبدا أن الولايات المتحدة ستكون منصفة فيما يتعلق بإسرائيل. من ثم، سيكون علي واشنطون تحمل الكثير منه، لكنها في الوقت ذاته عليها أن تتأكد أنه يعرف أين ترسم الحدود الفاصلة، وأن واشنطون تملك القوة والإرادة لحماية مصالحها. أما مفتاح الحل فيكمن في منع سباق التسلح بالشرق الأوسط من أن يصل إلي الحد الذي تلجأ فيه مصر، وقد تملكها القلق من إنتاج إسرائيل للقنبلة الذرية، بطلب تسليحها ذريا بأسلوب قد يؤدي إلي مواجهة كماحدث في أزمة الصواريخ الكوبية وآنذاك «لن يكون بحوزتنا جميع أوراق اللعب كما كان الحال في أزمة كوبا».

وعلي مدي بضع السنوات التالية، تم العمل بجميع توصيات بولك تقريبا، حيث سعت واشنطون للإبقاء علي ناصر مُطوّقا بحيث لا يستطيع تعريض مصالح الولايات

المتحدة في الشرق الأوسط للخطر. حاول ليندون چونسون أيضا أساليب كان قد سبق له أن استخدمها مع الكونجرس حينما أراد تصميم «المجتمع العظيم Great Society» بحيث شجع عبدالناصر علي الكتابة إليه. كتب چونسون في وقت مبكر من عام ١٩٦٤ يقول لناصر «ستمثل السنوات القليلة التالية توترا علي كلينا» لكن ثمة الكثير ما سيكسبه بَلَدَانا بدرجة «ينبغي علي كلينا أن نسعي للحفاظ علي علاقاتنا وتوسيع مداها بدلاً من أن يذهب كل منهما في طريقه بعيدا عن الآخر». بيد أنه وقعت سلسلة من الأحداث المتتابعة التي أفسدت محاولة العمل علي إقامة بداية جديدة وجعلت العلاقات تتدهور سريعا. في يوم عيد الشكر (الأمريكي) عام ١٩٦٤ قام بعض الطلبة الأفارقة بالقاهرة بإحراق المكتبة الأمريكية المجاورة للسفارة، وبعد بضعة أيام، قامت القوات الجوية المصرية بإسقاط طائرة يملكها أحد أصدقاء الرئيس چونسون بإطلاق النيران عليها عن طريق الخطأ. وقعت هذه الأحداث في وقت تجديد عقد صفقة القمح، وحينما سأل وزير التموين المصري السفير الأمريكي لوشيوس باتل عن إجراءات العقد الجديد أجابه أن الوقت لم يكن مناسبا للإلحاح علي الرئيس چونسون من أجل صفقة القمح، بيد أن تلك الرسالة حُرِّفت، حيث إنه من المفترض أن باتل كان قد صاح قائلا «بحق الإله»، لكن ما نُقِل إلي ناصر كان التالي «لا أستطيع مناقشة الموضوع علي الإطلاق لأن سلوككم لا يروقني».

وقتئذ، كان ناصر في طريقه إلي بورسعيد ليلقي خطابا في ذكري انتصار مصر في أزمة السويس ١٩٥٦، واتخذ من حادثة القمح منطلقاً لخطاب طنان هاجم فيه چونسون شخصيا حيث قال إن السفير الأمريكي يقول إنه لا يتقبل «سلوكنا»، «ونحن» نقول لمن لا يقبلون سلوكنا أن يذهبوا ويشربوا.. ثم توقف وسأل الجماهير «من أين؟»، وجاء رد الجماهير هادرا «من البحر». ثم أضاف قائلاً إنه يريد أن يبلغ الرئيس چونسون أن المصريين ليسوا مستعدين لبيع استقلالهم نظير عشرين، أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين مليون جنيه، وأنهم علي غير استعداد لمناقشة سلوكهم مع أحد، وأنهم سيقطعون ألسنة من يتحدثون السوء عنهم.

لكن سرعان ما أسف ناصر علي هذه الكلمات، وكان ثمة اعتذار مرتقب من

القاهرة مفاده أن ليساً قد وقع[1]. عادت التفاوضات حول صفقة القمح، لكن علي أساس المدي القصير. وعلي أية حال، فقد عاد چونسون إلي انتهاج الديبلوماسية الشخصية، وفي الأشهر الأولي من عام ١٩٦٦، وجه دعوة إلي أنور السادات رئيس مجلس الأمة، لزيارة الولايات المتحدة حيث كان ناصر قد اعتذر بسبب العلاقات المتوترة، واحتمال تعرضه لتظاهرات احتجاج، وأبلغ چونسون، وفقا لما ذكره هيكل في «وثائق القاهرة: ص ص ٢٢٣- ٢٢٨» إن مضار مثل تلك الزيارة ستكون أكثر من نفعها، حيث لابد وأن يتعرض لأعمال معادية، وأن تنظم الجماعات الصهيونية التظاهرات ضده مما سيجعل الأوضاع أكثر سوءا.

احتفي چونسون بالسادات واستقبله بالمكتب البيضاوي بالبيت الأبيض حيث مضي يؤشر إلي صور رؤساء الدول المُوقَّعة والمهداة إليه التي تغطي الجدران، وقال، وفقا لما جاء بكتاب هيكل الذي أشرنا إليه «إنني أحبك.. أعجب ببلدك، أحب الرئيس عبدالناصر. هيا انظر، ثمة مساحة هنا بانتظار صورة من الرئيس ناصر. لماذا لا يرسل إليّ صورته؟ لِمَ نعادي بعضنا؟ يجب أن تكون أصدقاء».

كان السادات قد حمل معه رسالة إلي جونسون تُعبِّر عن رضا ناصر عن تحسن العلاقات بين البلدين مؤخرا، واستغل الرئيس الفرصة ليذكر أن الولايات المتحدة كانت قد أعطت مصر في السنوات الأخيرة ما يربو علي مليار دولار من المساعدات، وأضاف أن شجب القاهرة الدائم للسياسة الأمريكية يعقد الأوضاع إذ إنه يعمل وكأنه سمكة ذهبية داخل إناء زجاجي شفاف، حيث لا تغفل الصحافة عنه أبداء من ثم، فعليهم أن يحاولوا مناقشة مشاكلهم «بهدوء بين أنفسهم ولا يجلنوها عالية من المايكروفونات». مضي چونسون يقول إنه علم من مساعديه أن القلق يتملك الدول العربية من احتمال إنتاج إسرائيل قنبلة ذرية، وطمأنه قائلا «إننا نراقب الوضع عن كثب» وإن الولايات المتحدة ليست منزعجة بدون داع حول الموضوع، وعلي القاهرة أن

(١) مرة أخري يلجأ الكاتب إلي عبارات مرسلة ومبهمة حيث لا يفهم القارئ تحديدا مما يقوله ما إن كانت القاهرة قد اعتذرت بالفعل أم لا، كما أنه لا يحيلنا إلي أي مصادر. وأغلب الظن أنه لولا إعلان ناصر إمكانية استغناء القاهرة عن الصفقة التي كانت أمريكا بمثل حاجة مصر إلي إتمامها لأسباب الحرب الباردة، ما أعادت واشنطون التفاوضات بشأنها. (الترجمة).

تعلم أن أمريكا تعارض مثل ذلك التطور «بسبب سياستنا المؤكدة المعارضة لانتشار الأسلحة النووية». كان كنيدي قد ضغط علي الإسرائيليين بشأن أهداف مفاعلهم النووي بديمونة بصحراء النقب، وأكد أهمية التفتيش الدولي المرة بعد الأخري، وبخاصة في صيف عام ١٩٦٣، بيد أن الإسرائيليين كانوا قد تهربوا من أسئلة كنيدي قدر استطاعتهم وحرصوا علي إبعاد المفتشين، حينما أتوا، عن المناطق الحساسة التي كانت تدل علي أن العمل يجري لإنتاج أسلحة نووية، وكانوا قد مضوا يكررون مقولتهم بأن إسرائيل لن تكون البادئة بإدخال الأسلحة النووية إلي المنطقة لكنها لن تكون أيضا آخر من يفعل ذلك. بيد أن وطأة الضغط علي إسرائيل خفّت إلي حد كبير عقب تولي جونسون السلطة بعد كنيدي.

حرص جونسون، وعلي الرغم من تأكيداته للسادات علي الحاجة للتعاون حول القضايا الكبري، علي عدم اغتراب إسرائيل حيث كانت حرب ڤيتنام تهدد بتحطيم آماله في إقامة «المجتمع العظيم» The Great Society»، علاوة علي اعتقاده بقدرة إسرائيل، كحليفة، علي التأثير في الليبراليين اليهود بالولايات المتحدة. ومن جهة أخري، فعلي الرغم من الخطاب الذي كان قد أرسله ناصر إليه، إلا أن أفعاله مضت تثير قلق واشنطون. كان ناصر قد تدخل في الحرب الأهلية باليمن[1] إلي جانب

(١) من المؤسف أن يلجأ مؤرخ أكاديمي مثل جاردنر إلي استخدام التعميمات والحديث المرسل وإغفال الوقائع. الثابت تاريخيا أن ثورة اندلعت في اليمن ضد حكم الإمام عصر الأوسطي. وكانت السعودية – ومازالت – تعتبر اليمن فناءها الخلفي وتعمل علي الإمساك بمقاليد الأمور فيه والإبقاء عليه متخلفا منقسما علي ذاته مع حرصها علي نشر المذهب الوهابي هناك. لا غرو أن أزعجها قيام الثورة هناك وخشيت من مغبات ذلك علي استقرارها الداخلي فعمدت إلي التدخل المسلح هناك بمساعدة السي آي إيه. التجأ الثوار إلي عبدالناصر لمؤازرتهم ووافق علي مضض وبإلحاح من السادات. يبدو أن هذا التدخل كان فخا قد نصب بإحكام لتشتيت جهود الجيش المصري واستهلاك الأسلحة التي كان قد حصل عليها واستنزاف مصر اقتصاديا وقلقلة الأوضاع فيها. وخلافا لما يقوله جاردنر لم يكن لناصر أطماع في اليمن، بل مازال الساسة اليمنيون المخلصون والشعب اليمني يعترف لمصر بفضل القضاء علي الإمامة ونجاح الثورة بقدر، علي الرغم من أن الأوضاع هناك لم تستقر أبدا نظرا لأن البلد مازال ملعبا لمختلف القوي السعودية منها والأمريكية والبريطانية، والعصابات التكفيرية المتشددة.

الحركة الجمهورية التي كان الاتحاد السوفييتي يدعمها أيضا مما أزعج المملكة العربية السعودية. كانت الجمهورية العربية المتحدة قد انتهي أمرها عام ١٩٦١ عندما أعلنت سوريا الانفصال عن مصر وكان ناصر يسعي إلي استعادة بريق دعوته إلي الوحدة العربية. أيضا، كان قد بدأ، في اجتماعات الجامعة العربية، يضغط من أجل قيام كيان فلسطيني مستقل، وكان هدفه الأساسي من هذا هو التحكم في الحركة الفلسطينية وبخاصة في الفصائل القتالية منها في قطاع غزة، من ثم كانت رعايته لمنظمة التحرير الفلسطينية هي محاولة منه لتوسيع مدي تحكمه في نمو الفصائل الفلسطينية التي كانت تتبني الكفاح المسلح، بيد أن ميثاق منظمة التحرير كان ينص علي الكفاح المسلح وحق عودة اللاجئين منذ ١٩٤٨ إلي موطنهم الذي كان تحت سلطة الانتداب البريطاني[١] آنذاك.

وفيما تصاعدت التوترات عبر الحدود المصرية/ الإسرائيلية راقبت إدارة چونسون المشهد بمشاعر مختلطة. لم يكن لأي من الإجراءات التي تبناها صناع السياسة الأمريكيون منذ عام ١٩٥٣ أي أثر في كبح جماح طموحات ناصر[٢]. وعلي الرغم من تشارك واشنطون والقاهرة في هدف مجابهة الخطر الشيوعي المفترض بالعراق، إلا أن المسار العام للعلاقة بينهما كان يتجه للتدهور. ثم عمل قرار ناصر بإغلاق مضايق تيران التي كانت تتيح للملاحة الإسرائيلية الوصول إلي البحر الأحمر وما بعده وطلبه من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة بالانسحاب عام ١٩٦٧، عمل علي تهيئة المسرح لاندلاع حرب جديدة. وفيما أنه لم يكن ثمة أحد بالإدارة الأمريكية يعتقد أن الحرب ستعمل علي تسوية الأمور أو تؤدي إلي حل دائم لمشاكلهم المستعصية مع مصر فقد كان الوضع يختلف عن ذاك الذي كان أيزنهاور قد واجهه عام ١٩٥٦،

(١) كان قيام منظمة التحرير، بمباركة عربية ومصرية، تتويجا لحركة الفدائيين في الأراضي المحتلة، ولم يكن لناصر دخل في هذا سوي الإلهام والدعم المعنوي والمالي والعسكري وتوفير وسائل التدريب. بل إنه حدثت تجاوزات من قبل كوادر الحركة، أدت إلي بعض الخلافات مع القيادة المصرية، بيد أن الظاهرة ظلت في نظر عبدالناصر أنبل ما حدث وسط الانهزامات والانتكاسات (الترجمة).

(٢) لا يوضح الكاتب ما إن كانت تلك الطموحات قومية وطنية أم شخصية، لكن أسلوبه يميل للإيحاء بأن كل طموحات ناصر كانت ذاتية وشخصية!! (الترجمة)

حينما اعتقدت الولايات المتحدة أن بوسعها أن تقف موقف المتفرج فيما تتكشف الأحداث. كان جونسون هذه المرة مصمما علي أنه في الوقت الذي لن يشجع فيه الإسرائيليين علي أخذ زمام المبادرة وشن الحرب، إلا أنه سوف يخبرهم أنه لا بديل لديه ليقترحه. وحينما بدأت حرب الأيام الستة لم يكن ثمة الكثيرون في الإدارة الأمريكية الذين يحتمل لهم أن يأسفوا علي رؤية ناصر «يعود إلي حجمه الطبيعي».

في محاولة لسبر أغوار النوايا الأمريكية في حالة قيام إسرائيل بالهجوم علي مصر، قام الجنرال مائير أميت، رئيس الاستخبارات الإسرائيلية، في ١ يونيو ١٩٦٧، بتزويد روبرت ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكي بتقرير بدا وأنه يماثل خطبة دين أتشسون الشهيرة في حضور قيادات الكونجرس في فبراير ١٩٤٧ حينما أعلنت بريطانيا أنه لم يعد بإمكانها الصمود في تركيا واليونان. كان أتشسون قد رسم صورة مرعبة للروس وهم يصلون إلي شمال إفريقيا وما بعدها، مثل طوفان شيوعي أحمر من التدمير والغزو . والآن، ولدي اجتماعه بأميت سأله ماكنمارا إن كان يعتقد أن الروس كانوا علي علم مسبق بإغلاق مضايق تيران، حيث بدا وأنه مهتم بما إن كان القرار خطة تم تنسيقها بين القاهرة وموسكو. أجاب أميت بأنه من المحتمل أن الروس لم يكونوا على علم بالقرار لكنهم لم يترددوا في استغلال الفرصة، ثم مضي أميت يؤكد علي ما قال إنه المعني الحقيقي لهذا الإغلاق الذي رأي أنه مجرد واجهة لخطة كبري أصبحت الآن مرئية، خطة أسماها «ظاهرة الدومينو».

قال أميت إن مصر، بمساندة روسيا، «تأمل أن تُخضع الشرق الأوسط بأكمله وحتي الحدود الروسية، بما في هذا إيران، للهيمنة العربية». وفيما أن هذا سيؤثر في إسرائيل مباشرة «فإن الأثر طويل المدي سيكون بالغ العداء للمصالح الأمريكية». لم يذهب أميت إلي حد القول إن تلك «الخطة» كانت وراء «القرار الأصلي» لمصر بإغلاق المضايق، لكنه أشار إلي أن القرار يتيح لروسيا الفرصة لتنفيذ خططها بعيدة المدي «أيا كانت الأسباب الأصلية للمجابهة الحالية». من ثم فإن خيار أمريكا الوحيد هو مساندة إسرائيل بالأسلحة والدعم الاقتصادي، كما أن «الولايات المتحدة هي مدانة بالفعل في أعين العرب بغض النظر عما نفعله نحن» وهكذا أنهي أميت حديثه.

أشار العرض الذي قدمه أميت إلي وجود عدة مُسلّمات في العلاقة بين مصر وروسيا بأسلوب كان من المؤكد له أن يستثير مخاوف الحرب الباردة، فيما أوحي بأنه يمكن تجنب أية مواجهة روسية/ أمريكية إذا ساعدت الولايات المتحدة إسرائيل علي القضاء علي ناصر وما يمثله من خطر. أيضا، كان ثمة استدعاء لـ «ظاهرة الدومينو» وما يضمره هذا من حروب تحرر وطني في جميع الأنحاء يحتمها السلوك السوفييتي الإمبريالي. بيد أن أميت بعد الاجتماع لم يكن متأكدا من أن حديثه كان مقنعا، إذ إن مكنمارا لم يجب علي اقتراحاته بشأن مساعدة الولايات المتحدة الشاملة الكاملة لإسرائيل ودعمها إياها، وسأل أميت الأميرال روفوس تايلور، أحد مضيفيه الذي صحبه في سيارته بعد الاجتماع، ما إن كان عليه لقاء الرئيس جونسون فأجابه بالنفي مؤكدا له أن ماكنمارا سينقل رؤيته إلي البيت الأبيض، وذكر تايلور «لقد حفزته علي إن ينام ليلته في هدوء ثم يذهب إلي إسرائيل في أسرع وقت ممكن حيث إن الحاجة إلي وجوده هناك تفوق الحاجة إلي وجوده بالولايات المتحدة».

كان القادة الأمريكيون يفهمون منذ وقت طويل موقف إسرائيل من كل تلك القضايا والتزموا الحذر إزاء إعطاء المبعوثين الإسرائيليين من أمثال أميت وإيبان أية ضمانات مطلقة بشأن الحدود. علاوة علي ذلك، فلم يكن البيت الأبيض يتفق مع الرأي الإسرائيلي الذاهب إلي أن الولايات المتحدة ستظل مدانة في أعين القادة العرب أيا كان المسار الذي تنتهجه، كما أنها، وأكثر من كل هذا، لم تكن تريد أن تجد نفسها في وضع تُدفع فيه إلي الاشتراك في عمل عسكري ضد أي بلد عربي لدي نشوب خلاف حدودي. وعلي الرغم من ذلك، كانت الولايات المتحدة توافق إسرائيل تماما في رؤيتها عن ناصر، ليس فقط كعقبة في سبيل مطامعها، بل كتهديد لوجودها، كما كان الإسرائيليون يرونه، أو هكذا زعموا.

وعلي الرغم من أن أزمة اليمن كانت قد خفت حدتها، إلا أنه كان مازال للولايات المتحدة شكاوي ضد القاهرة وكانت لم تعد بحاجة إلي توافق منها مع سياساتها في أماكن مثل العراق. والأكثر من هذا، فقد كانت أمريكا تنظر للسعودية والأردن

كدولتين مستقرتين تشكلان حوائط صد لطموحات ناصر [دعوته للوحدة العربية مثلا، واتخاذ موقف موحد ضد إسرائيل، هذا ما يرمي إليه المؤلف. الترجمة]. وأفضل من هذا كله، فقد كانت لدي چونسون معلومات مشجعة بأن إسرائيل لن تكون بحاجة إلي مساعدة لهزيمة مصر في أي صراع مسلح، وكانت الإدارة تعتقد أن الزعيم المصري لم يستوعب تضمينات ما كان قد فعله عندما طلب رحيل قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، وقام بإرسال قواته إلي سيناء بمجرد رحيلها وبإغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، وكان الخليج قد تم فتحه بعد التوصل إلي تسويات بعد أزمة السويس، لكن عبدالناصر أعلن أنه مصمم علي تصويب هذا الخطأ. كانت الأسابيع الأخيرة قد شهدت مواجهات سورية إسرائيلية وجد إزاءها ناصر أن سمعته علي المحك[1] من ثم، دفع بقواته إلي سيناء، وذلك إلي حد كبير، بسبب شعوره بالذنب لعدم مساعدته سوريا وكانت إسرائيل قد استولت علي بعض المناطق الحدودية[2] السورية، هذا علي الرغم من أن ريتشارد هلمز، مدير السي آي إيه، أبلغ جونسون بأن عبدالناصر لا رغبة لديه في الحرب حيث جاء بمذكرته أن المصريين «دفعوا بالقوات إلي سيناء في استعراض لافت وذلك، جزئيا، لإبداء حسن النوايا، وجزئيا، علي أمل ردع إسرائيل» عن شن هجمات ثأرية. كان ناصر يعلم أن جيشه ليس مستعدا لخوض الحرب.

لكن عبدالناصر كان قد بالغ في استخدام مفردات الحرب في خطاباته أمام

(١) مرة أخري يعمد المؤلف إلي السرد الملتبس ويختار من الوقائع ما يري أنه يخدم الاتجاه العام لروايته. لا يذكر مثلا أن السوريين قد التجأوا إلي مصر طالبين الدعم ومتوقعين عدوانا وشيكا من إسرائيل علي مصر وسوريا، لكنه يسرد الأحداث وكأن كل همّ عبدالناصر كان هو سمعته وأمجاده الشخصية [الترجمة].

(٢) لا يمكن أن يدخل هذا النهج في السرد إلا في باب التضليل التاريخي حيث لا يتم ذكر واقعة استيلاء إسرائيل بالقوة علي تلك المناطق أو عدوانها علي وجه التحديد، ناهيك عن إدانته، وكأنما كل أفعالها تأتي من قبيل البطولات المشروعة، فيما يتم التركيز علي إجراء مصر بإرسال قواتها إلي سيناء، ويفسر ذلك تفسيرا غريبا مستغربا وليس علي أنه محاولة للدفاع عن نفسها ضد عدوان مُبيّت، كانت قد أُخطرت به، وكانت أمريكا علي علم به كما يذكر الكاتب نفسه [الترجمة].

مجلس الأمة والنقابات العمالية. جاء في خطابه أمام مجلس الأمة بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٦٧ إن إغلاق خليج العقبة كان للتأكيد علي موقف مصر «من حقوق الشعب الفلسطيني» وكأنما كان ذلك يعمل علي مساعدة اللاجئين البالغ عددهم أكثر من مليون شخص كما خطب أمام النقابات العمالية قائلا إن مصر تواجه إسرائيل مباشرة، وإنهم إن هم أرادوا تجربة حظهم بدون مساعدة بريطانيا وفرنسا فإن مصر بانتظارهم، وإن العلم الإسرائيلي لن يمر من العقبة، كما أن حق مصر في السيادة علي مدخل الخليج غير قابل للنقاش.

كانت إسرائيل قد أرسلت وزير خارجيتها أبا إيبان، أكثر مفاوضيها حذقاً، إلي واشنطون ليعلم ما إن كانت واشنطون تخطط لعملية حربية دولية لفتح المضايق بالقوة، إذ إن عدم وجود مثل تلك الخطة يترك الطريق مفتوحا أمام إسرائيل لشن عملية [يقصد عدواناً] أحادية، لكنه أراد أن يعرف ما إن كانت إدارة چونسون ستكرر الموقف الذي اتخذته أمريكا عام ١٩٥٦ وتجبر إسرائيل علي التخلي عن مغانمها. أثناء إحدي تلك النقاشات أتي چونسون بتصريح يتم تفسيره أحيانا علي أنه قد أعطي لإسرائيل الضوء الأخضر حيث جاء بوقائع هذا الاجتماع ما يلي «كرر الرئيس مرتين، بكل توكيد ورصانة، أن إسرائيل لن تكون وحدها إلا إذا قررت المضي بمفردها».

كان أحد تفسيرات هذا التصريح هو أنه كان يعني أنه علي حين أن الولايات المتحدة لم يكن لها أن توافق علي العملية العسكرية فإنها لن تدينها. كان چونسون قد أبلغ إيبان، قبيل هذا التصريح مباشرة قائلاً: «ينبغي علي إسرائيل ألا تجعل نفسها مسئولة عن بدء الأعمال العدائية» وهو قول يحمل إمكانيات مضمرة ملتبسة كثيرة، لا تقتصر فقط علي اصطناع حادث، بل أيضا علي استخدام ما سبق لمصر فعله كمسوغ قانوني للحرب وفقا للقانون الدولي، وكان هذا ينطبق علي إغلاق خليج العقبة. تساءل إيبان ما إن كان الرئيس علي استعداد للتفكير في إنشاء حلف إسرائيلي أمريكي أمني علي غرار الناتو [كذريعة للتدخل إلي جانب إسرائيل]،

وأجاب جونسون وهو هادئ غير مبال وكأنما ما اقترحه إيبان أمر لا لزوم له وقتئذ أو في المستقبل: «ستلحقون بهم هزيمة نكراء مُذلة لا يفيقون بعدها».

لو كان لجونسون أن يسترجع الماضي ويتحدث لذكر كيف أنه وكنيدي قد حاولا إعطاء ناصر فرصة لكن ذلك «المصري» تسبب في كل تلك المصائب لنفسه(!!!) لأنه لم يأبه لما كان الأمريكيون يحاولون إخباره به، وتجاهل إرشاداتهم له. لم يكن موقفه منطقيا بالنسبة لقائد أمة كانت في أمس الحاجة للمعونة التي بإمكان أمريكا أن تقدمها[1]. عشية هجوم إسرائيل كتب وولت روستو، مستشار الأمن القومي مذكرة لجونسون أوجزت الموقف وبينت أنه قد بات بإمكان الولايات المتحدة تحقيق هدفها الأساسي وذلك بسبب تصميم إسرائيل. أخبر روستو جونسون أن أيا كان ما تقوله عناصر الاعتدال العربي – والتي تشمل كل العرب الذين يخشون صعود ناصر[2] عن محنة اللاجئين الفلسطينيين، فإنهم يفضلون أن يقوم الإسرائيليون، لا أية قوات خارجية، بتلقينه درسا وإعادته إلى حجمه الطبيعي، ومضي يقول إن الدعوة إلي القومية العربية كما يمثلها ناصر تشهد تراجعاً، كما لم تُثبت الاشتراكية العربية والمبادئ الأخري نجاحها. ثم أضاف التالي: «تحت السطح مباشرة تكمن إمكانية لمرحلة شرق أوسط جديد معتدل؛ تركيز علي التنمية والتعاون الإقليمي وتقبّل لإسرائيل كجزء من الشرق الأوسط إذا أمكن وجود حل لمشكلة اللاجئين، لكن كل هذا يتوقف علي تحجيم ناصر».

لدي مستهل الحرب الروسية اليابانية في فبراير ١٩٠٤ حينما هاجم الأسطول

---

(١) بتعبير آخر، علي البلدان التي تحتاج المعونة الأمريكية أن تتقبلها بشروط الولايات المتحدة التي تتمثل في التبعية والتواطؤ وتقديم التنازلات عن الأرض واستقلال القرار وكل ما تطلبه أمريكا منها، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن تلك المعونة ما هي إلا إعادة تدوير لجزء يسير مما تسيطر عليه أمريكا من مصادر ثروات تلك البلاد.

(٢) في ذلك التوقيت تقريبا كان ملك السعودية قد طلب من جونسون شن حرب للقضاء علي ناصر بتمويل تتحمله السعودية كما هو ثابت في مذكرات الخارجية الأمريكية التي أفرج عنها مؤخرا وكذلك تسريبات ويكيليكس (الترجمة).

الياباني السفن الروسية بميناء آرثر، شعر الرئيس روزفلت بالارتياح لأن جهة أخري اضطلعت بمهمة معارضة طموحات القيصر بدلا عنه، وكتب يقول في خطاب خاص إن اليابان «كانت تؤدي اللعبة نيابة عنا». كان موقف چونسون من حرب الأيام الستة مماثلا بالإضافة إلي عامل آخر وهو أنه رأي في الحرب وسيلة للحصول على مزيد من دعم الجالية اليهودية له في حرب ڤيتنام. وبالطبع، فإن اليابان، في نهاية المطاف، مثلت مشكلة أكبر كثيرا بالنسبة لمصالح أمريكا في آسيا، وتفاقمت الأمور حتي وصلت ذروتها في پيرل هاربور[1]. تمعن دين أتشسون، الذي كان بين «الواقعيين» الذين نقدوا أيزنهاور ودالاس لوقفهما الغزو الأنجلو / فرنسي/ إسرائيلي عام ١٩٥٦، والذي تم استدعاؤه مرة أخري إلي واشنطون طلباً لمشورته، تمعن في المعضلة المركزية التي كان لها أن تواجه صناع السياسة الذين كانوا يهللون لإسرائيل ويراعتها. تنبأ أن احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضي سيؤدي إلي وجود أعداد أخري من اللاجئين ومشاكل مستقبلية لا حل لها. قال روستو «استرجع المستر أتشستون تاريخ «استقلال» إسرائيل كاملا، وكان ما قاله واقعيا هو أن إقامة إسرائيل كان خطأ».

في ٥ يونيو ١٩٦٧، وجهت إسرائيل في السابعة والنصف صباحا الضربة التي كانت قد ظلت تخطط لها لمدة عشر سنوات، وفقا لما قاله أحد الاستراتيجيين الإسرائيليين. وبحلول المساء كانت القوات الإسرائيلية قد اجتاحت أجزاء كبيرة من سيناء وهرول أفراد القوات المسلحة المصريون عائدين إلي القاهرة سيرا علي الأقدام[2]. كانت الهزيمة أسوأ من تلك التي حدثت عام ١٩٤٨ أيام فاروق. ثم اتفق الطرفان علي هدنة

---

(١) ومن بعدها في هيروشيما ونجازاكي [الترجمة]

(٢) يعرض الكاتب تاريخا وكأنه سرد لما يراه وأنه «أمجاد» إسرائيل، ويُقصى وقائع كثيرة وملابسات أحاطت بهذا الهجوم مثل تعاون أمريكا الإيجابي ومعها بعض الدول العربية ورسائل التطمين السوفييتية إلي مصر وغير ذلك الكثير [الترجمة].

في ١٢ يونيو ١٩٦٧ بعد أن كانت إسرائيل قد احتلت سيناء بأكملها وكذلك الضفة الغربية وهضبة الجولان السورية. في الأيام الأولي للحرب لم يكن لدي الشعوب العربية معلومات عما حدث بالفعل، وعندما علموا الحقيقة أذهلتهم الصدمة، وظهر ناصر علي التليفزيون وأعلن بصوت فاقد للحياة تنحّيه عن منصبه وتركه لنائبه. لم يدم التنحي طويلا، حيث تمسك بالسلطة لآخر يوم في حياته بعد سنوات قليلة، وكانت تلك فترة كارثية حالت دون حدوث تغييرات تذكر تؤدي إلي تحسن «الأوضاع الاقتصادية»[١] بل إنه اكتسب سلطات ديكتاتورية أكبر، وتحولت الآمال التي عُقِدت علي ثورة ١٩٥٢ إلي مرارة وغضب وإحباط(!!). شَعرت واشنطون ببالغ الرضا والسعادة للقضاء علي تهديد «الناصرية»، وكما كان روستو قد أكد بإصرار قبل حرب الأيام الستة، فقد كانت فرص تغيير الشرق الأوسط موجودة تحت السطح مباشرة.

وفيما بدأ مجهود إعادة تشكيل إطار ذلك التغيير في فترة ما بعد الحرب، أُخمِد صوت ناصر[٢] وبدا أنه كان ثمة نغمة جديدة في المفردات التي استخدمها لدي الحديث عن مستقبل مصر. يُذكر أن الزعيم المصري قال وهو يتحدث إلي روبرت أندرسون الأمريكي الذي كان يعرفه منذ سنوات، ووفقا للمذكرة التي أرسلها أندرسون إلي وزير الخارجية والرئيس الأمريكي «عليك أن توضح لحكومتك وشعبك أننا نسعى لتسوية سياسية، لسلام سياسي». كان الزعماء العرب الآخرون قد حذروه وطلبوا منه عدم الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود وكان رده «لم نعد نتحدث عن حقها في أن تعيش بل عن حقنا في العيش». كان يعتقد أن هدف إسرائيل الجديد هو تدمير الاقتصاد

---

(١) مزيد من التضليل التاريخي، فكما هو معلوم للقاصي والداني فقد اندفعت الملايين في مصر والبلاد العربية فور سماع خطاب التنحي إلي الشوارع تطالب عبدالناصر بالبقاء في موقعه وتحمل مسئوليته حتي «إزالة آثار العدوان» [الترجمة]

(٢) لم يُخمد صوت ناصر، بل اكتسب مزيدا من النضج والجدية والإصرار. لا يذكر الكاتب «المؤرخ» مؤتمر القمة العربية بالخرطوم، والتأييد المذهل لموقف عبدالناصر، واللاءات الثلاثة [لا صلح، لا تفاوض، لا استسلام] التي كانت أبرز مقررات تلك القمة (الترجمة).

المصري بعد أن توقف دخل القناة ودُمِّرت محطات تكرير النفط أثناء الحرب. قال «واجبي الآن هو بناء اقتصاد قوي في بلدي، وهذه أفضل وسيلة للثأر».

كانت سنوات ناصر قد شهدت اعتراف الولايات المتحدة بقيادة مصر الثقافية والفكرية المحتملة للشرق الأوسط[1] وأيضا الراعية العسكرية للقناة ولقاعدة السويس، وكانت أمريكا تعتبرهما من الأصول الضرورية لها في المنطقة لكي تنجح في احتلال مكان السيادة الاستعمارية القديمة. ظلت هذه الرؤية عن مصير مصر ودورها علي الطاولة متبدية للعيان منذ اللقاء الأول بين دالاس وناصر، حيث رأت واشنطون أن هدف مبيعات الأسلحة للبلاد العربية ظل هو ذاك الذي كان الأميرال رادفورد قد عبر عنه بوضوح في شهادته أمام الكونجرس في أعقاب أزمة السويس وغضب واشنطون علي ناصر واستيائها منه.

كان رادفورد قد تعرض لهجوم قاس أثناء استجوابه عما إن كان مبدأ أيزنهاور سيؤدي إلي سباق تسلح في الشرق الأوسط، لكنه أكد مرارا وتكرارا عدم نيته إرسال الكثير من المعدات الثقيلة إلي المنطقة، وأن هدفه هو السيطرة علي مسلك الجيوش في تلك البلاد وتوليد مشاعر وطنية بالفخر من أجل مقاومة الإغراء الذي أغوي مصر إلي ارتكاب خطئها [اللجوء إلي الكتلة الشرقية من أجل التسلح]. كان السناتور ريتشارد راسل قد سأله ما إن كانت المعونة العسكرية بمقتضي مبدأ أيزنهاور قد تؤدي إلي إنشاء قوة مسلحة «ذات قيمة من منظور العالم الحر». وفي إجابته عن هذا السؤال عرض الأميرال الهدف الشامل لذلك المبدأ قائلا «إن الاعتبار الأول مُسخر لتوليد قوي في البلدان الصديقة من شأنها الحفاظ علي الأمن الداخلي» والشعور

(١) لم تكن مصر تنتظر اعتراف أمريكا بإمكانية «قيادتها» الثقافية والفكرية للشرق الأوسط، بل إنها كانت قد ظلت قائدة ورائدة فكرية وثقافية للعالَمَيْن العربي والإسلامي منذ ما قبل القرن التاسع عشر. لكن أمريكا كانت تفكر في قيادة أخري، تروّج فيها مصر لدور أمريكا الجديد في المنطقة، وهيمنتها عليها، وهو الأمر الذي لم يصبح واقعا إلا حينما أعلن السادات أن أمريكا تملك ٩٩٪ من أوراق اللعب بمصير الشرق الأوسط في يديها [الترجمة].

بالكبرياء هو جزء كبير من تلك القوي[1] قال «إنهم مغرمون بالمُعدات الثقيلة حتي يمكن لهم استعراضها في الشوارع الرئيسية في أعياد الاستقلال وغيرها من المناسبات، بحيث يعتقد الناس أنهم يملكون قوة مسلحة حقيقية».

بعد رحيل ناصر أصبح هذا الهدف شأنا أكبر كثيرا، فيما حمّلت واشنطون الجيش المصري، الذي اعتبرته جديراً بالثقة في المسائل الكبري، مزيدا من المسئولية وأقامت معه علاقة تكافلية.

(١) أي أن هدف الولايات المتحدة ظل هو تزويد الأنظمة بالأسلحة التي تجعلها قادرة علي حفظ الأمن الداخلي من أجل تحقيق «الاستقرار» والحفاظ علي المصالح الأمريكية وضمان أمن إسرائيل وتفوقها الكبير. وكعهدهم دائما، لم يُخفِ الأمريكيون ذلك، بما في هذا من استخفافٍ بنا، وتبجح وامتهان، لكن حكوماتنا هي التي مضت تتحدث عن المعونة العسكرية «الأمريكية»، والمناورات المشتركة، والمستشارين العسكريين، والتدريبات التي يتلقاها أفراد قواتنا المسلحة هناك، وكأنما واشنطون هي شريان الحياة لوجودنا ومن ثم يجب أن ندين لها بفضل «التبعية» [الترجمة]